القرآن وثالوث الاستبداد

دراسات

نشأت جعفر

استبداد ديني

استبداد مالي

استبداد سياسي





القرآن

وثالوث الاستبداد

- الاستبداد السياسى
- الاستبداد الدينى
- استبداد الثروة

نشأت جعفر



نشأت جعفر/ نشأت جعفر مهندس، خريج جامعة القاهرة عام 1968، تفرغ للكتابة بداية من عام 1996، نشر العديد من المقالات في الفكر الإسلامي، وله عدة كتب منشورة من بينها "الحرية في الإسلام (الضرورة المحظورة)" 2002، "العمل في الإسلام (الضرورة المهدرة)" 2003، وله ترجمات عديدة من بينها: "كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيفانجيلية"، و"الدين و السياسة في الولايات المتحدة" بالاشتراك مع آخرين.

دراسات

القرآن وثالوث الاستبداد

نشأت جعفر

الطبعة الأولى يناير 2015

رقم الإيـــــداع: 2014/23579

الترقيم الدولي: 978977515330

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

القُرآن
وثالوث الاستبداد

المحتويات



توطئة

إن العقيدة هى ما يتعهده الإنسان بقلبه، سواء أكانت سماوية أم غير ذلك، وهى من القيم العليا التى تجعل من الفرد البشرى إنسانًا، وتجعل لحياته قيمة حين يجاهد خلالها من أجل إنزال عقيدته على واقعه، والسلوك بتعاليمها مع أهله وأهل وطنه ومجتمعه، لذلك يقول أمير الشعراء:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدًا   **إن الحيـاة عقيدة وجهاد**

رغم الأهمية الهائلة للعقيدة، فإن الله - جل وعلا - لم يمنع - وكان قادرًا إن شاء - أن يكون هناك بديل، فقال - جل شأنه -: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[الكهف: ٢٩].

مع ذلك جاء من الناس من لا يجدون إلا جهدهم فى العمل على إلغاء البديل، و إن شئت فقل: حرق البديل.

(أ) الأول: هو المستبد السياسى، الذى لا يشرك فى حكمه أحدًا.

(ب) الثانى: هو المستبد الدينى، الذى أبطل وعطل التفكر والتدبر فى آيات كتاب الله، ولم يكتف بذلك، بل مد يده لنسخ وتعطيل آيات من كتاب الله المنزل - ومن ضمنها الآيتان السابقتان - وحرَّم وحرَم الناس من البدائل، ليصبح الإيمان إكراهًا.

(ج) الثالث: هو المستبد بالثروة الذى استأثر دون الناس بمراكمة الثروة وحجبها عن الآخرين بالاحتكار والاكتناز.

لقد جعلوا من أنفسهم أندادًا لله، معاندين لما أمر به، ومعطلين لما أراده، ومجترئين على كتابة، من حيث يدرون ومن حيث لا يدرون.

أتى هذا العمل لإلقاء الضوء على سمات هؤلاء الناس، وعلى زيف شعاراتهم، وكساد بضاعتهم، ولعله يُحدِثُ للناس ولهم ذكرًا؛ والله من وراء القصد.

نشأت جعفر. مصر الجديدة. ٧ / ٢٠١٤

الباب الأول

الاستبداد السياسي

الفصل الأول

الاستبداد هو الإكراه

أولًا: القصص القرآني:

هناك محور من محاور كتاب الله المنزل المتعددة، هو محور القصص القرآني، يتحدث كتاب الله من هذا المحور واصفًا له: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف: ٣].

القصص القرآني هو أحسن القصص، كما صرح به العلى القدير، علاوة على ذلك لا يمثل القصص القرآني أحسن القصص فحسب، لكنه أيضًا هو الحق من الإله الواحد الأحد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢].

حدد كتاب الله الغايات التى يستهدفها إنزال هذا القصص الحق فى ثلاث غايات:

أ) إثارة الفكر وإعمال العقل

لقوله تعالى:﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، والدعوة إلى تحفيز الفكر ودفع العقل إلى العمل الدؤوب هى دعوة لا يمل كتاب الله من لفت نظر المؤمنين إليها، وحضهم على ممارستها فى مجمل حياتهم.

ب) حصول الانتباه وانتفاء الغفلة

فى قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، فالمؤمن دائم الانتباه، شديد الفطنة، وليس المؤمن من أهل الغفلة، لذلك نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الغافل غير المنتبه: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».

ج) أخذ العبرة والتعلم

من تجارب السابقين، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، من لا يَسْتَفِدْ من تجارب السابقين من قومه، ومن تاريخ الإنسانية، يُعِدْ أخطاءهم، وينطبق عليه مقولة: «إن التاريخ يعيد نفسه»، ثم إن من لا يعى تاريخه، يضيع حاضره، ويفقد مستقبله.

قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون، هى واحدة من هذا القصص القرآنى، وقد بثت أجزاؤها فى ثنايا القرآن موزعة على العديد من سوره، ملقية الضوء على وقائعها من زوايا مختلفة فى كل سورة أتت بها، وذلك فى زعمى لما تحمله دلالاتها من أهمية قصوى، ومن قيمة أساسية بالغة الأهمية، وهى تعرية الاستبداد بشُعبه الثلاث، وهى: السياسى، والدينى، والمالى، وفضح أساليب الاستبداد، وبيان مساوئه، ورصد نتائجه الوخيمة على البلاد والعباد. كذلك تقدم هذه القصة القرآنية التحليل النفسى لشخصية المستبد، مفسرة لتصرفاته وسلوكياته، ومعلنة عن المصير المحتوم الذى لا يهرب منه مستبد على الدوام.

تأتى الشخصيات التالية ممثلة فى هذه القصة القرآنية لرموز الاستبداد بشعبه الثلاث:

(١) الاستبداد السياسى، ورمزه فرعون.

(٢) الاستبداد الدينى، ورمزه هامان.

(٣) استبداد الثروة، ورمزه قارون.

أما موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنه يمثل مع أخيه هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأسى حربة الثورة على مجموعة الاستبداد السابق بيانها، ومن ورائهما جماهير المستضعفين فى الأرض من بنى إسرائيل، الذين أوقع عليهم بلاء الاستبداد ضربات ظلمه، وعدوانه، إلى أن تداركتهم رحمة الله برسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

لم ترد كلمة الاستبداد فى مفردات ألفاظ السياق القرآنى، وهى تعنى: الانفراد، فنقول: «استبد فلان بشىء»، أى: انفرد به، و«استبد بالأمر»، «يستبد به استبدادًا»، إذا انفرد به دون غيره أى دون أى بديل، و«استبد برأيه»، انفرد به، إذن فإن الاستبداد يعني: الانفراد

بالأمر، أو الانفراد بالرأى. أو الانفراد بالحكم، أو الانفراد بالفعل - ولاحظ «دون غيره» - ما يجعلنا نصل إلى نتيجة مفادها:

أن الاستبداد (مع القليل من التبسيط) يعني: غياب البديل، لا وجود إلا لحل واحد ووحيد، وتنعدم الخيارات أو الاختيارات والحلول البديلة.

يتعارض «غياب البديل» بشكل عمودى مع ما جاء به الكتاب المنزل، الذى يعلى من قيمة الاختيار بين البدائل الواجب أن تكون متاحة دون عدوان، بل إن كتاب الله يحض على تفعيل إرادة الاختيار، فيقول بكل وضوح: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. جاء بالدين والمعتقد - أيًا كان هذا المعتقد - بوصفه أسمى وأشرف قيم تحقيق الذات الإنسانية، ووفر البديلين «الرشد، أو الغى»، تاركًا للإنسان العاقل حرية الاختيار بينهما. ما سبق يعنى أن الإكراه فى الرؤية القرآنية يعني: غياب البديل، لذلك فإن الاستبداد بوصفه غياب البديل هو الإكراه الذى يرفضه كتاب الله، حتى فى الدين والعقيدة.

من المثير للانتباه والدهشة والإعجاب أن كتاب الله المنزل يعتبر مجىء الإيمان بالله الواحد الأحد بدون أن يكون هناك بديل آخر أمام الإنسان هو أيضًا إكراه لا يقبل به جل وعلا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، يريد الله إرادة حرة مختارة بين بدائل، ثم تختار الإيمان، ولا يريد للناس أن تساق إلى حظيرة الإيمان بالإكـراه، أو بإلغاء عقـولهم عن طـــريق المعجزات، ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، يرفض الله إيمان الأعناق الخاضعة.

تمضى آية سورة البقرة قائلة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بعد أن رفض كتاب الله الإكراه فى الدين، قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، فما هو - أو من هو - الطاغوت؟ وما علاقته بالاستبداد؟ هذا ما سنحاول إيضاحه فيما يلى.

الفصل الثانى

الطاغوت

تحدثنا فى الفصل السابق عن أن ضرب الاستبداد السياسي والديني واستبداد الثروة هو واحد من أهم أهداف بعثة موسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ. وقلنا إن:

أ) الاستبداد السياسى.... رمزه فرعون.

ب) الاستبداد الدينى.... رمزه هامان.

ت) استبداد الثروة.... رمزه قارون.

وبينا أن الإكراه يعني في الرؤية القرآنية غياب البديل، وحيث إن الاستبداد هو الإنفراد بالأمر فهو يعني الإكراه بكل وضوح.

وجاءالنهى القرآني عن الإكراه متبوعًا بضرورة التخلص من ما أطلق عله مسمي (الطاغوت) لكي يصل الإنسان إلى الإيمان بالله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

فما هو الرابط بين الاستبداد أو المستبد وبين الطاغوت؟

تشكل الإجابة على هذا السؤال موضوع هذا الفصل...

يري كتاب الله المنزل إن الإنفراد بالحكم هو أمر إختص الحق تبارك وتعالى به نفسه لا ينبغي لأحد الاقتراب من هذا الأمر:

١- ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٦٢].

كما أنه هو وحده جَلَّ وَعَلَا الذي لا يملك أحدًا أن يعقب على حكمه.

٢- ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١].

لذلك فإن لله وحده طلاقة الفعل، وليس لأحد أن يسائله عن أفعاله، بل الله وحده الذي يسأل كل من في الوجود عن أفعالهم.

٣- ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ٦١].

٤- ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

تمثل الآيات الأربع السابقة حاكمية الله السياسية مثلما إنتبه (محمد شحرور) في كتابه تجفيف منابع الإرهاب إلى ذلك، و إن لم يذكر الآية [٣١: ٤١].

ينبني على ما سبق أن أي حاكم أو نظام للحكم يريد أن يكون نظام حكم إسلامي بحق؛ عليه أن يبتعد في أسلوب حكمه ونظام مؤسساته عن السلطات الأربع المذكورة في الآيات السابقة التي اختص الحق تبارك وتعالي بها نفسه؛ وذلك إعلاء لحاكمية الله.

ولأن الاستبداد هو (غياب البديل) فنري المستبد الذي ينفرد بالأمر وحده دون غيره؛ يحتكر لنفسه هذه السلطات الأربع بوعي أو بدون وعي فهو:

١- لا يشرك في حكمه أحدا.

٢- يحكم ولا معقب لحكمه.

٣- يفعل ما يريد.

٤- لا يسمح لأحد أن يسأله عما يفعل؛ لكنه يملك وحده مساءلة الناس عما يفعلون.

لا يوجد معني أو تسمية لهذا الفعل من جانب المستبد إلا أنه منازعة لرب الناس و إله الكون فيما إختص به ذات العلية. إنه عدوان من المستبد على الربوبية وعلى الألوهية بلا خلاف.

عندما ينازع المخلوق المحدود والفاني رب السماوات والأرض الباقي والدائم في حقوقه

وحاكميته؛ فإن ذلك هو عين مجاوزة الحد المقبول والمعقول. وتأتي كلمة (طغي) في كتاب الله للتعبير عن فعل هذا المستبد الذي تجاوز الحد المقبول والمعقول.

عادة ما يأتي الماء في الخلفية من فعل (طغي)؛ حيث تدل على صورة الماء الذي فاض بما يجاوز الحد ومن ذلك: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ٩٦].

لأن الماء إذا طغي يحمل قدرة هائلة على التدمير؛ وتعجز الحواجز والموانع والسدود عن إيقاف طغيانه فتنهار متداعية مفسحة الطريق أمام عنفوان قوته الهائلة حتى يبلغ مداه. وليس ببعيد ما أحدثته موجات تسونامي من دمار في اليابان.

لذلك فإن الإنسان الذي يجاوز الحد المقبول والمعقول مندفعًا غير عابئ بأية موانع أخلاقية أو قيمية منطلقًا ليتجاوز مخلوقيته ومحدوديته ليضع قدمه في الحيز الإلهي والربوبي ويكون وكأنه اعتمد على ذاتيته رغم ضعفها؛ واستغني عن الخالق الذي أمده بالحياة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وعندما يستمر المستبد في طغيانه غير عابئ بأية قيود أو حواجز أخلاقية وسلوكية، ويظل يطغي ويطغي ويطغي هنا يحق عليه مسمي (طاغوت)، وتأتي كلمة طاغوت من الفعل طغي على وزن (فاعول) وهي تعني من هو كثير من الطغيان؛ مثلما نطلق على الكمبيوتر الذي يقوم بعمليات حسابية بالغة الكثرة من البلايين في الثانية الواحدة مسمى (حاسوب).

من أجل ذلك فإن الخروج على الطاغوت مقدم على الإيمان بالله في الآية [٢: ٢٥٦] .

أن من يخرج على الطاغوت ويؤمن بالله هو الذي استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها حسب وصف الآية.

وهذا بالضبط ما فعله أهل ميدان التحرير في ٢٥ يناير؛ لذلك فهم أهل العروة الوثقي التي لا انفصام لها بإذن الله تعالي مهما حقد الحاقدون وكاد الكائدون: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [العلق: ١٢].

الفصل الثالث

الطاغوت والتوريث

قلنا في الفصل السابق أن الاستبداد هو إكراه يعني غياب البديل. قلنا أيضًا أن إنفراد المستبد بأمر الحكم دون غيره هو عدوان على حقوق لله إختص بها ذاته جل وعلا. و إن العدوان على الله هو تجاوز للمعقول والمقبول من جانب الإنسان المحدود، ولا يعني إلا الطغيان، ومع إستمرار المستبد في طغيانه فإنه يصبح طاغوتًا يجب الكفر به والخروج عليه.

سوف يتحدث هذا الفصل عن المتغيرات النفسية والسلوكية التي تحدث للمستبد أو الطاغوت خاصة إذا طال أمد وجوده في الحكم.

لكي ينفرد المستبد بالأمر دون غيره؛ فإن الخطوة الأولي تستلزم غياب البديل، بل إن د.محمود عبد الفضيل - أستاذ الإقتصاد المرموق - قد صرح في أحد المقالات بجريدة الشروق أن التعبير الذي كان يتردد داخل أروقة مؤسسات الحكم في عصر مبارك هو: (حرق البديل) وهكذا يدخل برنامج ممنهج لتغييب أو حرق أي بديل ظاهر أو حتى في طريقه للظهور، ويحدث ذلك إما بالإقصاء أو التحييد أو التقييد أو العزل أو الشيطنة أو اغتيال الشخصية (تذكر ما حدث للبرادعي)، وقد يصل الأمر إلى القتل أو الاغتيال.

لا يعني غياب البديل إنه لا وجود له في الواقع، فالبدائل لا إختفاء لها في الطبيعة، لكن ما يجري هي عملية حصار و إخفاء عن الأنظار بالمنهج الذي ذكرناه. لذلك وللتعمية على ضعف فكرة غياب البديل، يتوجب على المستبد أن يخلق بديلا غير ماديا؛ بديلا غيبيا كريها يحمل معه أوخم العواقب إذا حل محل المستبد. وهنا تبدأ هجمة ترويجية تحمل عبارات تحذيرية بل وتهديدية لبث الرعب في قلوب الناس من فكرة البديل، وتظهر

الكليشيهات من قبيل (أنا أو الفوضي) أو (أنا أو عدم الاستقرار)، (أنا أو غياب السلام الاجتماعي)، (أنا أو الفتنة الطائفية)، (أنا أو الحرب الأهلية).. لينزرع رفض البديل وكراهيته بين الناس.

ومع ضراوة نيران حرق البديل تنزوي الكفاءات، وتنأي القامات بنفسها عن أية مشاركة تجنبًا للإغتيال المعنوي أو البدني، ويهاجر أصحاب العقول الواعية هربا إلى حيث يمكنهم تحقيق ذواتهم، وتبدأ التربة السياسية والاجتماعية في الجفاف، ويبدأ الحراك والتدافع الاجتماعي في الخفوت، لينجم الركود المقيم الذي يسمى عندها بالاستقرار، ويصل الأمر بالناس إلى اليأس حتى تسري بينهم مقولة (كيف يطلب عاقل ذهاب المستبد! هل لديكم بديل في حالة ذهابه؟).

يفسح هذا التغييب أو الحرق للبديل المجال للانتهازيين وعديمي الموهبة وأهل النفاق للصعود وإحتلال قمة الهرم الاجتماعي؛ والتحكم في مفاصل السياسة والاقتصاد، وتداول المناصب والمنافع فيما بينهم ويوسد الأمر لغير أهله كما قال النبي ﷺ.

ما سبق يعني أن الفراغ الذي يخلقه حرق البديل، يملؤه السفهاء، ولا يسمع المستبد لرأي معارض، بل تصبح كل إيماءة له هي الحكمة، وكل خطاب له تاريخي، وكل تعبير هو فصل الخطاب، فتتضخم ذاتيته بإفراط فقد أصبح هو منبع الفلاح والنجاح والرشد فيقول لمن حوله من المنتفعين: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولأن الرشاد هو من معطيات الألوهية، وحيث يصل الأمر بمن حوله إلى القول أن البلاد قد ولدت يوم ولد الطاغوت فيصدق وتراه يقول لمن حوله من المنتفعين والإنتهازيين وإن كان بلسان الحال: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

الآن وبعد أن أصبح صاحبنا إلها، وأزاح بزعمه الله الذي لا إله غيره، يتزايد شعوره بالتحكم والسيطرة، ويستمتع بالمنع والمنح، والإعطاء والإمساك، وهنا تبدأ ألوهيته المزعومة أو بالأحرى ذاتيته المتضخمة في إبتلاع كل ما حوله حتى تصل إلى إبتلاع مفهوم الوطن ذاته، فيشعر بأنه يمتلك هذا الإقليم، وأنه صاحب هذه الرقعة من الأرض التي تسمى مصر. هنا يتوجه الطاغوت إلى قومه بكل خيلاء مستنكرًا عليهم عمى أبصارهم عن رؤية ما هو

واضح وجلي بأن الوطن هو أحد ممتلكاته الشخصية: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ١٥].

وهنا تبدأ حملة أخرى من الإعلان عن ربوبية الطاغوت لأن الإمتلاك من حقوق الربوبية، فتعلن أبواق إعلامه ومنابر حزبه ومؤسساته إستبداده: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٣٢ ـ ٤٢].

بعدها تأتي النتيجة المنطقية والوحيدة التي تترتب على الملكية الخاصة لشيء ما، وهي حق مالك الشيء في أن يورثه لأبنائه فهذا أمر لا ينازع فيه مخلوق.

ومن هنا بدأ مسلسل التوريث التعيس.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

تناقض الاستبداد مع قوانين حركة الحياة

تعتبر السلطوية «AUTHORITARIANISM» أحد صور الحكم الاستبدادي.

ويصف أحد أبحاث علم النفس السياسي نظرة السلطويين إلى أنفسهم على النحو التالي:

«يري المستبدون السلطويين أنفسهم بوصفهم كائنات متفردة تجد الإشباع العارم في السيطرة والتحكم وتحافظ على إدامة الحال»(*).

فيما يبدو أن المستبد بعد أن إنفرد وحده بالحكم فإنه يحاول إيقاف الزمن - وذلك من المحال - فيلجأ إلى محاولة إبطاء حركة الزمن أو تعطيله حتى يتوفر له الوقت الكافي لإدارة وتحريك كل الخيوط التي وضعها في يده ومنع الجميع من الإمساك بها دونه.

لكن الأمر داخل العالم الموضوعي ليس بهذه البساطة. تتعارض قوانين الطبيعة وتعقيدات الواقع مع احتمال نجاح أن يفرض إنسان فرد إرادته على الجميع وأيضًا على قوانين الطبيعة وجريان الزمن. ذلك لأن:

أولا: لأن الإنسان مخلوق اجتماعي بطبعه، وليس في مقدوره فعل كل شيء بمفرده مهما أوتي من مواهب وقدرات. وحتى على مستوى الأسرة وهي أصغر وحدات المجتمع فلابد من تكاتف الزوجين للقيام بمسئوليات حياتهم ومعيشة أولادهم.

ثانيًا: إن حركة سير الزمن وجريانه خارجة عن سلطان الفعل الإنساني، وبالتالي فإن

(*) Http://en.wikipedia.org/wiki/authoritarianism

حركة التاريخ متطورة لا يمكن إيقافها. هل في مقدور بشر أن يفلت من قيد حركة الزمن مرورًا بالمحطات التالية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

وذلك فقط على المستوى البيولوجي.

ثالثًا: هناك قانون التفاعل المشترك على مستوى الإرادات الإنسانية وتصارعها، والذي يسمى عند البعض بالمنافسة الشريفة؛ ويصيغه البعض الآخر بمنافسة قطع الرقاب أو البقاء للأصلح. يطلق كتاب الله على ذلك لفظه (الدفع) فيقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

إن التدافع بين الناس هو سر صلاح الأرض حيث يضمن الحركة ويوجه التطور ويواجه التحديات بالاستجابات الملائمة.

بل يـؤكد كتاب الله على أن التدافع بين الناس هو الذي يحمي الدين من الهدم والإنهيار: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

يتصادم التدافع بين الناس بكل صرامة مع الاستبداد حتى و إن طال عمره حيث تعمل إرادة فرد واحد على إلغاء قانون التدافع، وتحاول أن تسحق الإرادة الإنسانية للجميع.

رابعًا: تحتضن بنية الطبيعة قانون يسمي تداول الأيام، وتبرهن عليه عبرة التاريخ بجلاء تام. فمع مرور الليالي وكر الأيام كم من إمبراطوريات هائلة قد إنهارت، وكم من دولة دالت، وكم من ممالك إختفت، ويلفت كتاب الله نظر الناس إلى ذلك قائلًا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٢٨].

ويقول أيضًا بكل وضوح: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لذلك يتناقض الاستبداد بشكل صارخ مع قانون تداول الأيام لأنه يهدف إلى ثبات الزمن وإيقاف الحركة ومنع التداول. لذلك يقول أهلنا لمن يقاوم التداول (لو دامت لغيرك ما انتقلت لك).

خامسًا: لا يستثني قانون هلاك الأشياء أي شيء. ويسري على كل شيء. فما بالك بالطغيان والطاغوت الذي ينازع الله في حاكميته. تتحدث الآية عن الدنيا وما تزخر به من حياة وأنشطة وتدافع وتطور ومباهج قائلة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

من المفارقة في قصة فرعون أن رأس حربة الثورة التي قضت عليه نشأ وتربى وعاش في قصره. لقد أوتي الطاغوت من مأمنه أو من مكمنه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

قد يأتي العدو الطاغوت من داخل قصره؛ أو من ميدان التحرير.. لكن صرامة العالم الموضوعي تجعل من إتيانه أمرًا محتومًا.



الفصل الخامس

عوامل انفجار الثورة

وصل الطاغوت إلى منتهاه فى الطغيان، وتضافرت حتمية قوانين الوجود الموضوعية القاهرة مع عوامل الغليان والفوران للفعاليات الشعبية، وإن شئت قلت: للمستضعفين فى الأرض، فحانت لحظة الثورة على الطاغوت، وجرى سيناريو الأحداث كالتالى:

أولًا: الوضع الداخلى لحظة انفجار الثورة:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، اتسم الوضع الداخلى فى البلاد بالمظاهر التالية، حسب الآية السابقة:

أ- العلو من جانب الطاغوت وأتباعه. (تذكر انتخابات ٢٠١٠، وتعديل قوانين منع الاحتكار).

ب - الفساد والإفساد فى كل أركان المجتمع.

ج - العدوان على الرعية، الذين سمتهم الآية «المستضعفين»، فمن لم يقتل بالسيف قتله الفقر والعوز.

د - انقسم المجتمع إلى شعبتين:

١ - الأولى محدودة من المحاسيب المستفيدين.

٢ - بقية الناس من المستضعفين تحت ضربات العدوان الطاغوتى.

ثانيا: البدء فى التحرك:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤].

﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٤٣].

ثالثًا: الثورة هى ثورة سلمية:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧].

رابعا: التوجيه الاستراتيجى للثورة:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

النتائج المرجوة هي:

أ) الإنعام على المستضعفين فى الأرض وتخلصهم من الظلم.

ب) إعادة حق المستضعفين فى الأرض فى التقدم إلى الصدارة والتوجيه وتقرير المصير.

ج) وراثة النظام الاستبدادى، و إقامة نظام جديد منهم ولهم.

د) عودة وسائل القوة والمنعة والسيطرة لملكية المستضعفين فى الأرض.

هـ) التخلص من النظام البائد ومن سياساته ورموزه ومن كل من كان وما كان يتحصن به.

خامسا: السمات العامة للحالة السياسية والاجتماعية فى مجتمع الطاغوت:

أ) الاستبداد والطغيان السياسى والعلو والظلم

أما وقد أسلفنا الحديث عن الاستبداد والطغيان، فنأتى الآن إلى «العلو»، وهى تعنى: الارتفاع، وأيضًا الفوقية، وقد انقسم الأمر فيه إلى رأيين:

(١) يرى الرأى الأول أن العلو هو صفة نفسية متأصلة وموجودة على الدوام فى أعماق العقل، وجاهزة، وعلى أهبة الاستعداد للظهور بشكل انفجارى مع أدنى استثارة: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٣ - ٧٦].

لقد استشاط إبليس غيظًا، وانفجر معلنًا عن اعتراضه، وأبان عن عنصريته الدفينة.

(٢) يرى الرأى الثانى أن العلو يعنى: العناد، بوصفه صفة دائمة ملتصقة بالطاغوت، لذلك يصف القرآن فرعون ومن حوله بعدما جاءتهم الآيات الواضحة على يد موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

حتى مع الاقتناع الداخلى بصواب رأى ما فإن العناد الذى هو العلو، والذى يأتى فى الآية مرتبطًا بالظلم، هو من الصفات اللصيقة بالطاغوت، (تذكر هنا الدكتوراه فى العند)؟!!

ب) تمزيق المجتمع إلى فئات وطوائف ومذاهب، وتشجيع الانقسام لتكريس رسوخ النظام:

هناك تقسيم رئيسى للمجتمع إلى قسمين:

١- طبقة المنتفعين والمستفيدين من المتحلقين حول النظام.

٢- بقية الناس (المستضعفين فى الأرض).

ثم هناك تقسيم آخر للمستضعفين فى الأرض:

تقسيم عرقي:

يؤدى إلى تطهير عرقى ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [القصص: ٤].

ويقابله الآن تقسيمات من نوع:

١- النوبة.

٢- بدو سيناء.

٣- قبائل الصحراء الغربية.

ثانيًا: وهناك تقسيمات دينية (مسلمون ومسيحيون)، وتقسيمات مذهبية (سنة، وشيعة، وسلفيون...) وفى الخلاصة يعمل الطاغوت على اللعب لصالحه بإثارة النعرات الطائفية والدينية والمذهبية بين الناس.

ج) الفساد والإفساد:

يقول القرآن عن الطاغوت:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١٠ - ١٢].

والفساد فى القرآن الكريم هو نقيض الصلاح، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وبما أن الأمور تعرف بأضدادها، فإذا عرفنا الصلاح فسوف نعلم معنى الفساد، والصلاح لغة هو: أن يكون الشيء نافعًا أو مناسبًا، ويعنى أيضًا الاستقامة والسلامة من العيب، أما الصلاحية للعمل فتعنى: حسن التهيئة له، نفهم ما سبق من الآية التى نزلت فى زوج زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال الله عنها: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، بمعنى أن الله هيأها للقابلية للحمل والإنجاب، رغم الكبر فى السن والعقم. لذلك فالفساد الذى هو نقيض الصلاح يعني: عدم الصلاحية للعمل، وعليه فإن «أكثروا فيها الفساد»، تعنى عدم صلاحية مؤسسات دولة الطاغوت وعجز هياكلها عن أداء الوظائف المنوطة بها، وهنا نفهم سر انهيار البنية التحتية، رغم ما يجاورها من قصور فارهة فى تجمعات الصفوة وأهل الحظوة: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وينخفض الإنتاج، وتقل الجودة لعدم الصلاح الذى يعنى السلامة من العيب، وتتدنى الخدمات، وتشيع أخلاقيات الخطف والنهب والسلب وعمليات الكسب بدون مجهود، ويختفى ويتوارى التخلف خلف العشوائيات، وتبدد الموارد، وتهدر الطاقات الطبيعية

والبشرية على يد الرشوة والمحسوبية، وتعارض المصالح، وتنزوى الكفاءات، وتضيع المهارات، ولا يبقى ويرتع ويهنأ إلا الفاسدون المفسدون.

د) الفسوق، أى عدم التقيد بأى قيود:

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

الفسق لغة هو الخروج عن الإطار المحيط، يقول العرب: «فسقت الرطبة عن قشرها فسقًا وفسوقًا»، أي: خرجت منه.

لذلك فإن الطاغوت والمحيطين به، وكذلك مؤسساته وأذرعته الأمنية، وهياكله التشريعية والتنفيذية، لا تتقيد بأى إطار مهنى، أو قيد تشريعى، أو أخلاقى، أو حقوقى، أو حتى إنسانى، فهى مؤسسات منفلتة، بعيدة عن القيود والرقابة والسيطرة، وذلك أيضًا من معانى الطغيان، كما أسلفنا.

كتب الباحث تيودور م. فيستال، من جامعة ستيل واتر، بولاية أوكلاهوما(*): إن السلطوية (صنف من الاستبداد) تتسم من بين ما تتسم به بما يلى:

أ) هياكل سلطة ذات مركزية وتركيز عاليين، تنشأ هذه الهياكل وتستمر عن طريق: «نظام قمعى يستبعد أى تحديات محتملة».

ب) العمل على أساس القواعد التالية:

١ - حكم الأفراد، وليس حكم القانون.

٢ - انتخابات موجهة لصالح نظام المستبد.

٣ - تتخذ كل القرارات السياسية المهمة من قبل رجال السلطة غير المنتخبين، ومن خلف الأبواب المغلقة.

(*) Vestal, Theodore m' Ethiopia. A post coldwar African state' greenwood 1999. p. 17.

٤ - تعمل البيروقراطية بشكل تام الاستقلال عن أى قواعد، وغياب رقابة الهيئات المنتخبة، وعن ما يهم القاعدة الشعبية التى انتخبتهم.

٥ - ممارسة السلطة السياسية بشكل منفلت وغير قانونى.

ج) غياب ضمانات الحريات المدنية، وكذلك غياب أى تسامح مع معارضة ذات معنى.

د) تكون المحافظة على الاستقرار السياسى بواسطة السيطرة على القوى الأمنية، والحفاظ على دعمها لتأمين النظام والسيطرة على المجتمع.

إذن يترتب على الفسوق أن يشيع البطش والعدوان والتعذيب والترويع والقتل، وإذكاء الطائفية وإشعال نار الفتنة، علاوة على نزح الثروات، والتجريف الفاحش للإمكانات، والانبطاح أمام الأقوياء.. والقائمة تطول. لا يتورع الطاغوت عن قتل أى إنسان من أهله يرفع صوته: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

لا يتورع الطاغية عن قتل أى صوت معارض يدعو إلى الحق، لأن ذلك هو الفساد، وكأن المعارضة أيضًا تدعو إلى تبديل دين الطاغية من وجهة نظر المستبد!!

كما أن الحلقة المحيطة بالطاغوت من العابدين له بدون أى مجاز، لا يتورعون عن دفعه لإجراءات التصفية الجسدية للمعارضة، حين يقولون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

المسئولية مشتركة فى القتل للثوار بين من حرض عليه ومن قام به، وبين من أسر به أو سكت عليه، فكلهم فى الفسوق شركاء (تذكر موقعة الجمل).

الفصل السادس

الشخصنة والقرارات الخاطئة

ما زلنا مع سيناريو الأحداث للثورة:

هـ) ادعاء المؤامرة واللجوء للاغتيال المعنوى، نتيجة لضعف حجة الطاغوت:

كان موسى واضحًا فى طلبه من فرعون، وكان الطلب غاية فى التحديد بأن يسمح فرعون لبنى إسرائيل بمغادرة مصر بدون تعذيب، بلا زيادة، ولا نقصان.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

[الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

[الشعراء: ١٦، ١٧]

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]

جادل فرعون موسى فى ربه، وأراه موسى برهان صدقه بمعجزة العصا التى تتحول إلى حية، وتحدى فرعون هذه الآية، وجمع السحرة لدحر موسى، وانتهى النزال بكل وضوح كاشفًا عن أن موسى هو الأعلى، واعترف السحرة وأقروا بالإيمان بالله الذى هو وحده القادر على تأييد رسوله بمثل هذه الآية. هنا طاش صواب فرعون، ورفع الغطاء عن ذاتيته المفرطة، ولم يعد هناك موضع لأى موضوعية، حيث احتلت فكرة المؤامرة (تذكر الأجندات) خشبة المسرح بكامله، تحول طلب موسى بإعطاء بنى إسرائيل حقهم فى تقرير مصيرهم والخروج من نير الاستعباد، والنجاة من العذاب المهين، إلى أنه مؤامرة لقلب نظام

حكم فرعون. ما هى تفاصيل مؤامرة قلب نظام الحكم، يقول فرعون، موجها خطابه للسحرة: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

يقول: «شحرور»(*): [ولننظر إلى قوله: «لتخرجوا منها أهلها»، وتقديم الجار والمجرور على المفعول به، فموسى وهارون يريدان السكان (بنى إسرائيل)، ولا يريدان المدينة، أى أنهما يريدان إخراج أهلها منها، لكن فرعون يقلب القصد، ويتهمهما بالتآمر والمكر للاستيلاء على المدينة بأن يخرجوا منها أهلها. وهذا يعنى قلب نظام الحكم الذى يستحقان عليه عقاب المتآمرين]. انتهى.

لا رد على تهمة قلب نظام الحكم إلا بالتنكيل والعذاب والبطش، وصولًا إلى القتل، فيكون الحكم غير القابل للاستئناف أو النقض على من آمن: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٤].

عادة ما يستبق الطاغوت التصفية الجسدية بالتصفية المعنوية، بحيث تمهد الثانية الأرض للأولى، وتبدو وكأنها النتيجة المنطقية للمقدمة المفروضة. حين جاء موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ليقدما طلبهما، قائلين: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]. يعنى الوحى أن هناك موحيًا، وهما يقولان: إن الموحى إليهما هو الله، وهنا بدأ السؤال من فرعون:

فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

فرعون: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥].

لاحظ أن فرعون يوجه السؤال إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعندما يرى أن موسى لديه الإجابات والبيِّنات، ومع غياب الحجة لدى فرعون، فإنه يتوجه عوضًا عن التحدث مع موسى للكلام مع بطانته من الحاضرين، ليغطى على غياب حجته، وليمنع عنهم التأثر بما يصدر من موسى من بينات، وليتقوى بالحضور على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(*) محمد شحرور فى كتابه «الدولة والمجتمع» صـ ٢٥٥.

(تذكر: خليهم يتسلوا).

عندها يوجه موسى الخطاب للحاضرين، راجيًا أن يعملوا عقولهم:

موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

هنا يبدأ اغتيال الشخصية من جانب الطاغوت، والسب و إطلاق النعوت السيئة وسوء الأدب (تذكر البرادعى).

فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

موسى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

الحوار من طرف موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هادئ وهادف ومنطقى، وتلك فضائل يفتقدها الطاغوت، ولذلك يلجأ إلى اغتيال الشخصية بوصمها بصفة الجنون تارة، وبالخبل تارة أخرى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

و يصل الأمر إلى التهديد بالعقوبات المقيدة للحرية لغلق كل أبواب التواصل.

و) الشخصنة كنتيجة منطقية للذاتية المفرطة.

تتخذ كل القرارات فى النظام الطاغوتى تأسيسًا على مصلحة الطاغوت الذاتية، وليس على أى أساس آخر، حيث تغولت الأنا التى تضخمت بإفراط، حتى ابتلعت كل ما حوله وصولًا لابتلاع الوطن ذاته (لاحظ عدم تعيين نائب للرئيس لمدة ثلاثين عامًا رغم كل المناشدات التى وصلت إلى حد الاستجداء، لأن ذلك يخدم مصلحته فى التوريث).

ظل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعو و يرجو و يرغب و يطلب خروج بنى إسرائيل لعدد من السنين، ويجادل و يفاوض و يدعو الله لرفع البلاء عن فرعون وملئه، وفى كل مرة يخلف الطاغوت وعده و يعود إلى رفضه وعناده وطغيانه. لما استنفد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كل السبل، لم يعد أمامه إلا أن يتخذ قراره، و يصطحب بنى إسرائيل بليل، مخلفين وراءهم الظلم والاستعباد، يتوجهون إلى الحرية وتقرير المصير، مستعينا بهداية الله له.

استشاط الطاغوت غضبًا، وهو الذى ظل يعد موسى بتركهم يرحلون لعدد من السنين ثم ينكث وعده المرة تلو المرة، وقرر إعداد الجيش والخروج وراءهم لمعاقبتهم، لكن على أى أساس اتخذ الطاغوت هذا القرار؟

هل على أساس أسباب منطقية، أو مصلحة عامة، أو رجحان دليل أو حتى غلبة الظن على ضرورة اتخاذ القرار؟ لقد ساق الطاغوت السبب الذى تأسس عليه قرار ملاحقة بنى إسرائيل، كما أوضحه التنزيل الحكيم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢، ٥٥]. السبب الذى تأسس عليه حشد الجيش والخروج وراء بنى إسرائيل، هو أن الطاغوت مغتاظ منهم..!!

لا عجب أن يكون الهلاك والخسران والخراب والتردى واللعنة هو مصير أى نظام طاغوتى، طالما كان ما سبق أن سقناه هو السمات المميزة لنظامه السياسى. نجت الثورة، ونال بنو إسرائيل حريتهم، واندحر الطاغوت، ودمر جيشه وأخذ عقابه الدنيوى فى ذلك، يقول القرآن: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

أما فى الآخرة فستلاحقه لعنة الدنيا أيضًا، هو وحواريه، وفى ذلك يقول التنزيل المجيد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

وفى النهاية وكما يبين كتاب الله فإن الأمر هو اختيار حر من الإنسان، وعليه اتخاذ القرار، وتحمل عواقبه، أو تحصيل منافعه، فالطغيان قراره: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وهنا ننوه إلى قرار جيش مصر العظيم بعدم إطاعة أمر الطاغوت والانصياع لأمر الشعب، فأنقذ وطنه، وأنقذ نفسه من الهلاك، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل السابع

تخريب الاستبداد للشخصية

أولًا: الهبوط من الإنسانية للبشرية:

يلاحظ المتأمل في كتاب الله وجود فارق في المعني بين كلة «بشر» وكلمة «إنسان». تأتي كلمة «بشر» في الكتاب المنزل للإشارة عن الوجود الفسيولوجي للإنسان بوصفه كائن حي له أجهزة وأعضاء وأطراف، وله حاجات مثل الطعام و الشراب والتكاثر.. لذلك جاء الإعتراض الأول للناس على رسلهم نابعًا من كون الرسل من البشر:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

وكان رد الله على ذلك مفحمًا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٩].

في حين تأتي كلمة «إنسان» في القرآن الكريم للتعبير عن كائن يملك إرادة حرة، ويقدر على تفعيل هذه الإرادة في الإختيار بين البدائل، وهو مؤهل لتحمل مسؤولية الإختيار.

تخبرنا الآيـة التـالية عن هذا الإنسان عندما يصل إلى سن الإكتمال العقلي فتقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

الإنسـان هـنا إرادة حرة مختارة عاقلة تملك إختيار سبيل الرشاد وقد تختار النقيض:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٧ ـ ٨].

والكند هو القطع، والكنود هو الكفور للنعمة لأن يكند الشكر لله.

نأتي الآن إلى مشكلة المستبد السياسي أو الطاغوت الذي ينفرد بالأمر وحده، ولا يشرك في حكمه أحدا، ويفعل ما يريد وهو في النهاية يحرق البديل ولا يسمح إلا بإنفاذ إرادته المنفردة على الجميع، ملغيًا لإرادات الناس الذين يحكمهم.

وهنا تحدث الطامة الكبري؛ فحين تقيد حرية الناس في التعبير وفي الإختيار؛ فإن إرادة الإختيار لديهم تصاب بالضمور مع مرور الوقت، ما يعني بكل وضوح أن يتحول كل فرد من أفراد المجتمع من إنسان فرد إلى مجرد واحد من البشر.

عندما ينزل الإنسان إلى مرتبة البشر تصبح المطالب الفسيولوجية هي جل همه، وغاية علمه، وأقصى مناه. يعمل الفرد من البشر بكل طاقته من أجل الحصول على مطالبه الأساسية ومطالب أسرته بما لا يترك له وقتًا لتنمية أية مهارات اجتماعية أو تواصلية، ويختفي من روعه ضرورات العلاقات الإنسانية السوية، وتنزوي اهتماماته بالسياسة وبما يدور حوله داخل الوطن.. ناهيك عن خارجه.

ما سبق لا يعني التقليل من أهمية الحاجات الفسيولوجية وكذلك الحاجة للأمان، لأنهما من الأهمية بمكان حيث يضمنان البقاء ويوفران إستمرار الحياة على الأرض. لذلك فإن الحق تبارك وتعالي يصرح بأن تحمل مسؤولية الدين من جانب الإنسان لا تأتي إلا بعد أن تتحقق له حاجاته من طعام وغذاء وأمان: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤].

فلا تنتظر تدينًا أو سلوكًا أخلاقيًا من جوعان أو عار أو محتاج إلا فيما ندر. لكن توفير هذه المطالب الأساسية لا تكفي وحدها لبناء مجتمع إنساني حر خلاق منتج، فلا بد من أن ينمو فوقها حاجات أعلى مثل التكافل الاجتماعي والمساواة.. وغير ذلك من الضرورات لإستكمال النمو الإنساني على مختلف الأصعدة.

بذلك يحول الاستبداد والطاغوت الوطن إلى رقعة جغرافية،؛ ومساحة ترابية تقطنها مجموعة من البشر ذوي الإرادات العاجزة، وتخلو من الإنسان، فكأنها أصبحت منطقة خالية وفارغة. يخلق هذا الفراغ الخالي من وجود الإنسان نوعًا من المغناطيس الذي يجذب القوي الطامعة ذات الإرادات الواعية لمصالحها الذاتية، لتتوجه محاولة ملء هذا الفراغ - حيث أن الطبيعة تأبى وجود الفراغ - ومن هنا كان ظهور الاستعمار والإحتلال، و إرتهان القرار السياسي، وسيطرة المصالح الأجنبية على إقتصاديات المنطقة، ويحل التخلف والركود والجمود والرجعية. لذلك كانت مشاريع القوى الغربيةعلى الدوام تأتي إلى منطقتنا تحت دعوى (ملء الفراغ في الشرق الأوسط)، فغياب الإنسان عن منطقة ما يعني وجود فراغ بها حتى ولو كانت مملوءة بالبشر.

ولذلك تحدث «مالك بن نبي» عن وجود صفة داخل طبيعة أهلنا وأهله سماها «القابلية للإستعمار» وسماها أيضًا «القابلية للاستحمار» - على ما فى المسمي من تجاوز - وهذا فى رأيي ناجم عن ما سببه الاستبداد من الهبوط من الإنسانية إلى مرتبة البشر الذين يحاولون مجرد البقاء والحفاظ على حياتهم.

التخلص من الاستبداد ومن الطاغوت هو البداية الصحيحة والخطوة الأهم نحو إستعادة الإنسانية، و إستعادة الدين الصحيح والخروج من التخلف والركود المقيم.

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

الاستبداد والهبوط من الإنسانية إلى البشرية

أولًا: (يتبع):

تنحو كلمة «بشر» فى كتاب الله المنزل - كما أسلفنا - تجاه المعنى المتعلق بحاجات الإنسان الفسيولوجية اللازمة لبقائه، من مثل الطعام والشراب، فى حين تأتى كلمة إنسان معبرة عن كائن يملك حرية الاختيار بين البدائل المتاحة، وقادر على إعمال عقله لترجيح البديل المظنون صلاحه.

يجادل أحد علماء النفس المشهورين [إبراهام ما سلو - (١٩٠٨-١٩٧٠)] وهو من رواد علم النفس ذى التوجه الإنسانى، بأن فأرًا يعضه الجوع، وأن قردًا يشعر بالرغبة الجنسية، سوف ينشدان الحصول على الراحة والإشباع بالوصول إلى الطعام، و إلى العلاقة الجنسية مثلما نفعل نحن البشر، لكنه يضيف أن المتعة الناجمة عن الاستماع إلى أغنية أو قطعة موسيقية أو قصيدة من الشعر هى ملكية حصرية للإنسان، وهى التى تميزه عن بقية الكائنات.

لذلك وضع «ماسلو» تراتبية هرمية لحاجات الإنسان، بحيث تقبع الحاجات ذات المرتبة الأدنى فى قاع الهرم، وحددها بأنها الحاجات الفسيولوجية، ثم تأتى الحاجة إلى الأمن والأمان فى المرتبة التى تعلوها، وفوقهما تأتى الحاجة إلى الحب والارتباط، وهكذا.. حتى نصل إلى الحاجة إلى النضال من أجل تحقيق الذات لتحتل قمة الهرم.



هرمية ماسلو للحاجات الإنسانية

من المهم أن نذكر أن ماسلو يعتقد أن الناس سوف يجاهدون من أجل الحاجات ذات المرتبة الأعلى، من مثل الحاجة للاحترام، فقط عندما يحصلون على الإشباع من الحاجات ذات المرتبة الأدنى، فمن المقبول تفهم أن الدافع إلى كتابة رواية أدبية من قبل شخص ما على سبيل المثال، سوف يتراجع إلى الوراء إذا كان صاحبنا لم يتناول طعامه لفترة غير قصيرة. بالتالى لن يحمل النضال من أجل تحقيق الذات أى أهمية ما لم يحدث إشباع لكل الحاجات التى تقبع تحته فى هرمية ماسلو.

من المثير للدهشة والانبهار أن خالق السموات والأرض يصرح فى كتابه المنزل بأن الصلاحية لحمل مسئولية العقيدة والدين بما يرتبانه من تبعات القيام بوظائف الاستخلاف الإنسانى، لا تتوفر إلا للإنسان الذى استوفى حاجاته الفسيولوجية، والحاجات للأمن والأمان، وجاء ذلك منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

ليس فى مقدور الجائع أو الخائف أن يتحمل أى مسئولية على الإطلاق، ناهيك عن مسئولية الدين، لذلك فلا يرجى الحصول على عمل أو إنتاج أو دقة أو التزام سلوكى وأخلاقى من الجائع والعريان والخائف.

من المثير للاستغراب أيضًا أن يتحدث الناس عن ضياع الانتماء وتفشى السلبية والفساد، وأكثر من نصف الشعب يعانى فى الحصول على متطلباته الأساسية اللازمة لمجرد البقاء.

لذلك يعمل الاستبداد السياسى على إفقار الناس، حتى ينشغلوا طوال حياتهم فى السعى والجرى والصراع من أجل الحصول على ما يبقيهم على قيد الحياة. ثم إذا استوفى بعضهم الحصول على ما يقيم أوده هو وأسرته، جرى إخافة الناس وسلبهم الشعور بالأمن عن طريق قوانين الطوارئ والمحاكم العسكرية وزوار الفجر، وما إلى ذلك، فيبقى محصورًا ومقيدًا فى قاع الهرم، فلا يشعر بالحاجة إلى الاحترام أو بالحاجات الاجتماعية أو بحقوقه الدستورية، فهو خائف يفتقد للأمن، وخائف من الفشل فى الحصول على قوت الغد، فيفتقد الأمان. وبوضوح يحشر الاستبداد الناس فى قاع الهرم، حتى يصبح فى مقدوره السيطرة عليهم. بعدها يلجأ المستبد - بعد أن أصبح الناس لا يعرفون الانتماء ولا الارتباط ولا أهمية المصلحة الاجتماعية والوطنية - إلى معايرة أهله ومواطنيه بأن سلبيتهم هى السبب الرئيسى فى تدهور أحوال الوطن، وفى الفساد المستشرى فى جنباته، ويشعرهم بالدونية وبأنهم عبء على المستبد لا يستحقون شرف أنه حاكم لهم، وتنصرف أبصارهم عمَّا فعله الاستبداد بهم من نزح لثرواتهم، وتجريف لهياكلهم السياسية والاجتماعية، وتدمير بنياتهم التعليمية والثقافية، فهم المسئولون وهم الملومون ولا يستحقون إلا ما هم فيه.

إن دين الله تتبوأ فيه الحاجات الاجتماعية مكانة لا تقل عن مكانة المسئولية الفردية، فالدين يحض على الإحسان إلى الآخر، بدءًا من الوالدين والأسرة اللصيقة، إلى ذوى القربى، ثم إلى الجار الجنب، والصاحب بالجنب، ويحض على الرفق باليتامى والفقراء والمساكين، ويجعل لهم حقًّا فى أموال المؤمن، لذلك لا رجاء لفرد من الناس مغموس فى الجوع، مقهور بالخوف، لم تولد لديه الحاجات الاجتماعية بعد أن يفهم ويمارس صحيح الدين مهما امتلأت

المساجد وتعددت المنابر، وازداد عدد من يرتدين الحجاب والنقاب، النص القرآني واضح، فلا أمر بعبادة رب البيت إلا بعد توافر (الطعام والكساء والمسكن والشراب)، وحصول الأمن والأمان وانتفاء الخوف، ويمثل التخلص من الاستبداد الخطوة الأولى على هذا الطريق الطويل.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع

نهر النيل والطغيان السياسي

تفرض حقائق عالم الوجود الموضوعى أو عالم الطبيعة بعض الحتميات التى من غير الممكن إلغاؤها، بل قد يكون فى إلغائها الهلاك الحتمى للإنسان. الجاذبية الأرضية هى - على سبيل المثال - واحدة من تلك الحتميات التى يستحيل إلغاؤها (إلا داخل معامل الاختبار). لا يعنى ذلك فى نظر الإنسان صاحب الإرادة أن يكون الحل هو الاستسلام والانصياع لهذه الحتمية، بل إنه يعمل عقله لمحاولة التعامل معها، والتحايل عليها، باكتشاف قوانينها، والعمل وفقًا لهذه القوانين، بحيث يستطيع الإفلات من أسرها، كما هو الحال فى الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية.

تمثل حقائق الجغرافيا أحد هذه الحتميات التى تواجه الإنسان الذى يحيا حياته بداخلها، كأن يحيا داخل جزيرة وسط المياه، أو فى بيئة جبلية أو صحراوية، إلى آخر هذه الظواهر الجغرافية. مثلت جغرافية مصر ذات السمات الخاصة أحد أكبر التحديات التى واجهت الإنسان المصرى، والتى تعامل معها فى زعمى بأعلى مستوى من النضال والذكاء والتحضر.

أهم ملامح هذه البيئة، أو الموضع المصرى، هى:

أ - نهر وحيد يأتى من الجنوب ويصب فى الشمال.

ب - هذا النهر نهر فيضى، يرتفع فيه الماء فى أوقات محددة من العام.

ج - صحراء شرقية وأخرى غربية ممتدة على جانبى النهر.

عاش المصريون على جانبى النهر، وإن جعلوا للضفة الشرقية الحياة، وللضفة الغربية الموت، الذى أسموه (الخروج إلى النهار) فى إشارة إلى شروق الشمس وغروبها. أصلح

المصريون الدلتا، وقدموا للبشرية واحدًا من أعظم اختراعاتها، وهو اختراع الزراعة، لكن الأمر لم يكن لينجح أو يستمر ما لم يتواءم المصريون مع هذه الجغرافيا من خلال تنظيم صارم راعى الآتى:

أ) كان على القريب من النهر أن يسمح بمرور الماء للبعيد عنه، فالماء هو الحياة.

ب) كان على صاحب الأرض المنخفضة أن يسمح بوصول الماء إلى صاحب الأرض العالية.

ج) كان على الجميع التعاون فى مد شبكة معقدة ومترامية الأطراف من أجل الرى والصرف.

د) كان على الجميع التعاون فى تقوية ضفتى النهر، وترميم الجسور والحفاظ على نظافة النهر، وإزالة العوائق فى مجراه.

هـ) عند فيضان النهر، كان الجميع يشتركون فيما يشبه الخدمة الإلزامية وتسمى «العونة»، من أجل صد طغيان الماء عن القرى والنجوع، وكلما ارتفعت قامة النهر، كلما ارتفعت الشريحة العمرية التى تشارك فى هذه الخدمة الإلزامية، حتى تصل إلى العجائز وكبار السن، ولم يكن التقاعس فى وارد الناس، لأن المسألة كانت مسألة حياة أو موت.

و) لم يكن من اليسير الخروج على قوانين الجماعة، حيث البديل الوحيد للخروج عليها هى صحراء ممتدة على الجانبين، مقفرة ومهلكة، يصعب الحفاظ على البقاء بداخلها.

فى ذلك يقول أحد المؤرخين: إن النيل خير المصريين بين الحكومة والدم، فاختار المصريون الحكومة. ما يعنى أنه للأسباب السابق ذكرها ارتضى المصريون الخضوع لسلطة دستورية مركزية أعلى، تعمل على الإشراف على ضبط النهر، وعلى ضمان التوزيع العادل للماء بين كل الأطراف، لأن البديل لذلك كان هو التقاتل والحروب والدماء. بذلك عرفت مصر أول حكومة مركزية فى تاريخ الإنسانية.

كان فرعون مصر على وعى تام بمصدر الشرعية الذى كفل له حكم مصر، وإحكام سيطرته عليها، وصولًا إلى إحساسه بأنه امتلك مصر، فادعى الربوبية، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

كان على تمام المعرفة بأن مصدر شرعيته هو ضبط النهر، والإشراف على التوزيع العادل للمياه، والعمل على رعاية النهر والترع والمصارف، لذلك أردف دعواه بملكية مصر بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١]. إن ضبط النهر هو مصدر شرعية حاكم مصر، ولا يزال الأمر صحيحًا إلى يومنا هذا. إذا أردت أن تحكم على فاعلية أى حكومة فى مصر فانظر إلى النهر، يأتِكَ الجواب.

استغل فرعون مصر هذا التفويض الذى أعطاه إياه المصريون فى أن يتحول إلى طاغوت يدعى الألوهية، ويدعى الملكية لمصر، فينادى تبعًا لذلك بربوبيته، وحيث إن المصريين محبون للحياة، محبون للزراعة والخير والنماء، كارهون للدم، كان سكوتهم يطول، خاصة أن الواحد منهم يظل معظم السنة منحنى الظهر يربت على أرضه ويهدهدها سعيًا وراء الإنتاج الوفير، ويظل يُعنى بمسارب الرى، وقنوات الصرف، ولتتنفس الأرض وتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج. استغل الطاغوت هذا الحتم الجغرافى، واستغل الحِلم الذى يتسم به أهله، لكن دوام الحال من المحال.

لذلك ربط الغربيون بين بيئات الأنهار الفيضية وبين الطغيان، فيما أطلقوا عليه - ظلمًا - نظرية الطغيان الشرقى «oriental despotism»، وكأن الشرقى - وهو شرقى لأنهم اعتبروا أنهم المركز، فهو فى جهة الشرق منهم - الذى يقدس الحياة والنماء والإعمار يحمل جينات القابلية للطغيان. واستمرأ البعض ذلك بربط الفرعونية بمصر، والقول بأن المصرى فرعون إذا سمح له المجال. كأنه لا طغيان إلا فى البلاد الشرقية، بزعمهم.

لذلك فأنا أميل إلى التفسير الدلالى الذى قال به «د. محمد شحرور» بأن كلمة فرعون هى كلمة اشتقت من جمع فعلين فى اللسان العربى:

الأول: كلمة (فرع) وهى تدل على ارتفاع وعلو وسمو، ومنه (الفرع) وهو أعلى شيء فى الشجرة على سبيل المثال.(*)

الثانى: كلمة «عون» ومنه اشتقت الإعانة والماعون والعوان.

والعوان هى: التى لها قبل، ولها بعد، كالبقرة العوان التى يقول فيها القرآن: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، إن العوان فى البقر هى التى قبلها بكر، وبعدها فارض. إذن فإن معنى فرعون كحاكم هو أعلى هرم السلطة، وأن كل فرعون له قبل وله بعد، أى أنه كان قبل موسى وسيأتى بعده. إنها صفة تطلق على طواغيت الاستبداد السياسى الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان. انظر إلى صدام حسين العراق، وبن على تونس، وماركوس الفلبين، وسوهارتو أندونيسيا، وستالين الاتحاد السوفيتى، وسالازار البرتغال، وفرانكو أسبانيا. وتشاوتشيسكو رومانيا، والقائمة تطول وتتوزع على جهات الأرض الأربع. إن مقولة اختصاص الشرق بالطغيان تنقصها الأدلة، وينقصها البرهان. الغريب أن من بيننا من يردد هذه المقولة ويزعم أن المصريين يربون الفراعين، وهو قول يدل على اجتماع الخفة مع الفهم السقيم، فالطغاة على الدوام يسبقهم طغاة، ويلحق بهم طغاة، مع مسيرة البشرية فى كل أرجاء المعمورة.

المفارقة التى تثير الأسى وتثير بالقدر نفسه الذهول أن فرعون مصر الأخير كان من الجهل - إن شئت - أو من ضيق الأفق - إن أردت - أو قل إن الهوى قد أعماه بسبب حرصه على توريث مصر، حتى إنه لم يدر مصدر شرعية أى حاكم لمصر، مثلما كان فرعون موسى على تمام الوعى به، وهو ضبط النهر وحمايته وتطهيره، فأهمل النهر، مصدر الحياة لمصر، وامتد الإهمال من المصب إلى المنبع، فأضاع حقوق مصر فيه أو كاد. استطاع هذا الرجل أن يجمع إلى الطغيان الكثير من الجهل وضيق الأفق علاوة على قلة الوعى، فكان نسيج وحده.

(*) د. محمد شحرور - الدولة والمجتمع - الأهالى للنشر - دمشق - ص244.

الفصل العاشر

أكذوبة فرعنة المصريين

ثالثا: هل المصريون فراعنة حسب الزعم السائد؟

«المصريون فراعنة، بل إنهم أيضًا صناع فراعنة.. إنهم شعب لا ينصاع إلا لمن يحكمه بالحديد والنار، والاستبداد، (لابد من شكمهم لأنهم فراعنة).. إذا ترك لهم العنان فسوف يطغون ويعيثون فى الأرض فسادا..!!»

تقابل هذه المقولات الشائعة على الدوام المصريون فى خارج بلادهم، وفى داخلها بين بعضهم البعض، وتظهر على السطح بكثرة فى أحوال الانفلات الأمنى، أو مع بروز المطالب التى يطلق عليها كذبًا «مطالب فئوية». فما نصيب هذه المقولات - أو إن شئت الدقة هذه المزاعم - من الصحة والحقيقة؟

لقد أوضحت فى الفصل السابق الدلالة اللغوية لكلمة «فرعون»، والتى تعنى الحاكم فى أعلى هرم السلطة الذى يطغى ويحكم بالاستبداد ويمارس البطش والعدوان على محكوميه، وهو ظاهرة حركية فى الزمان والمكان، أى أنه قابل للوجود فى كل مكان وأى مكان، لا يختص به مكان أو إقليم أو موطن واحد، وقد تواجد من قديم الزمان، ويتواجد فى الحاضر، وسوف يتواجد فى المستقبل، طالما كانت هناك مجتمعات إنسانية. يقدم هذا التفسير الدلالى والذى يؤيده وجود الطواغيت فى كل قارات الأرض الست، وكذلك وجودهم فى مختلف الحضارات القديمة وصولًا إلى عصرنا الحديث، أقول: يقدم ذلك الرد الأول الذى يدحض تخصيص المصريين بالفرعنة.

إذا كانت كلمة «فرعون» تأتى فى اللغة المصرية القديمة من اللفظين «برعو» ويعنيان

«بيت الحاكم»، فمؤدى ذلك أنه يبدو أن القرآن أطلق هذه الكلمة على حاكم مستبد عدوانى باطش كان يحتل بيت الحكم فى زمن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يجوز إطلاقها على كل ملوك مصر الذين حكموها من بيت أو قصر الحكم، لأن ذلك يشبه أن نسمى حكام الولايات المتحدة بأنهم البيت الأبيض/ البيوت البيضاء.

يؤيد زعمى هذا أن كتاب الله أطلق مسمى «ملك» على حاكم مصر فى عهد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولم يسمه «فرعون» ما يدل على اختصاص الكلمة بالحاكم فى عهد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأتى القرآن بكلمة الملك فى سورة يوسف ست مرات، منها:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ [يوسف: ٥٤].

لذلك من الخطأ الجسيم تعميم لفظة فرعون على كل من حكم مصر فى التاريخ القديم، ولذلك فإن أهل العلم بالتاريخ المصرى القديم يقسمون مراحله تحت مسمى «عصور الأسرات» وليس الفراعنة.

كذلك فإن من يقرأ سورة يوسف لا يجد من هذا الحاكم أو الملك بالتعبير القرآنى غير الحرص على مصالح شعبه، والتحوط المستقبلى لمصالح البلاد بتخزين الطعام وقت الوفرة، تحسبًا لزمان الشدة، وانحيازه للحق مع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى مجابهة السيدة المصرية، رغم أن يوسف أجنبى من العبرانيين (وكان موسى وقومه من نسلهم)، بل لم يتردد فى إعطائه منصبًا من أعلى مناصب المملكة المصرية عندما وجد منه خبرة وعلمًا بالشئون الحياتية والاقتصادية، فما أبعد هذا الملك عن فرعون موسى.

كذلك فإن طبيعة المكان فى مصر - موضعًا وموقعًا - هى من الجود والخير والثروة بما لا يستدعى ضرورة الاستبداد، لكنه يظهر على فترات مثل البثور على البشرة الناعمة - فمصر فى كتاب الله هى قبلة من يريد التمتع بالحياة الطيبة والعيش الرغد والسلام والأمان، وهى فى عبارة وجيزة «إجابة السؤال»، حسب تعبير (د. نعمات فؤاد). أوجز ذلك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخاطبًا قومه عندما طلبوا طعامًا غير ما ينزل عليهم: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١].

كذلك جاء وصف مصر فى كتاب الله بأنها جنات وعيون وزروع وكنوز، بل ومقام كريم، لذلك يقول عن ذلك الكندى فى تفسيره: «وصف الحق تبارك وتعالى مصر بما لم يصف به مشرقًا ولا مغربًا، ولا سهلًا ولا جبلًا ولا برًا ولا بحرًا، حين قال واصفًا خروج فرعون من مصر متعقبا هو وجنوده لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧].

وتكرر الوصف مرة أخرى عن هذا الخروج حين قال جل وعلا: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٨].

أضيفت هنا الكنوز التى خص الله بها الموضع فى أرض الكنانة وعلينا أن نتذكر أن الجنة فى الآخرة جاءت بأوصاف وصفت بها مصر: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٥١، ٥٢].

بل إن مصر هى خزائن الأرض، حسبما أسماها يوسف - عليه السلام - فى حديثه مع الملك: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

إذا أضفنا إلى ما سبق طبيعة سكان هذه البلد، وهم المصريون، أهل الزراعة والفلاحة، اللتين تسمان الشخصية بالإيمان والوداعة والتعاون مع الآخرين. لذلك تتسم شخصية المصريين بالانفتاح على الآخر، مع الثقة فى نفسها، فهى على الدوام مفتوحة لاستقبال الآخرين من ذوى الحاجة واستيعابهم، وتوفير فرصة الحياة الآمنة لهم، وقد لخص ذلك كله قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مشجعًا لأهله من العبرانيين على القدوم والاستيطان فى مصر: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩].

بل تسمح الثقافة المصرية ذات البعد الإنسانى الواسع والسابق للأزمان، بأن يكون للنبهاء وأصحاب الخبرات من غير المصريين أن يبلغوا المناصب العليا بلا عنصرية ولا استنكار، مثلما أسلفت.

وإذا كان الاستكبار - وهو من أوصاف الطاغوت، بل هو منبع الطاغوتية، إلى جانب العلو والظلم والفساد لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥] -، فإن الله قد نفى عن المصريين الاستكبار، فقد كانت مصر مسيحية الديانة، وقت نزول القرآن، وجاء فيه بشكل قاطع وصف المسيحيين بعدم الاستكبار: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

[المائدة: ٨٢]

إذن فالطاغوتية وما يسمى زورًا بالفرعنة هى أمور مناقضة لمصر، سكانًا وأرضًا، لكن لكونها ظاهرة حركية، فلم يكتب لمكان ولا لزمان منها النجاة، وليست مصر باستثناء.

إن فرعنة المصريين كذبة كبيرة، صدقها المصريون، وهى كذلك جزء من الحرب النفسية التى تشن على المصريين عبر الأجيال.

وفى النهاية قد يقول قائل - وله كل الحق - وأين هى الكنوز والزروع والمقام الكريم؟ بل أين هو الأمن والأمان؟ وأين أنت من موطن يعانى ما يقارب من نصف شعبه من الفقر المدقع، ومن العشوائيات والخرائب، ووصل الأمر إلى سكن المقابر، ومزاحمة الموتى، وضاع الأمن، ولا وجود للأمان، وبنية أساسية مهترئة، وزحام يجعل الحليم من المجرمين، فأقول وأكرر بدون ملل: فتش عن الاستبداد والطغيان، فهو القاعدة التحتية لكل هذا الخراب والهوان والضعف، نسأل الله السلامة.

❋ ❋ ❋

الفصل الحادى عشر

سحرة فرعون

طبيعة الإعلام فى نظام الطاغوت - سحرة فرعون:

إذا كان الاستبداد فى المعنى الأساسى كما أسلفنا هو غياب البديل، أو بتعبير د. عبد الفضيل، أستاذ الاقتصاد «حرق البديل»، بسبب من أن المستبد لا يُعنى إلا بأن ينفرد وحده بالأمر كله. وحيث إن طبيعة الأشياء فى الحياة الواقعية بتعقيداتها الكبيرة - خاصة فى الوقت الحالى - تجعل من انفراد شخص واحد بالأمر كله، مهما أوتى من إمكانات، من الصعوبة بمكان، بل قل من المستحيل بالتمام، فيترتب على ذلك أن يبدأ تيار الحياة وسريان الزمن فى التباطؤ وضعف الحركة، بسبب اختناق المسار بين يدى الطاغية. وكلما زاد زمن الاستبداد والطغيان، ضعفت حركة الزمن، واختنق مسار الحركة فى المكان الذى يحكمه الطاغوت. لذلك جاء وصف المستبدين كما أسلفنا على يد أحد الباحثين بأنهم: «يرون أنفسهم بوصفهم كائنات متميزة، تجد الإشباع العارم فى السيطرة والتحكم، وتحافظ على إدامة الحال (status quo) على ما هو عليه»، عند ذلك يصاب مجتمع المحكومين بالاستبداد بالشلل التام، وتغرق كل فاعلياته فى ركود مقيم.

تنشأ - عندئذ - الحاجة لدى الطاغوت فى الحصول على وسيلة أو أداة ضخمة، تنحصر وظيفتها فى إيهام المحكومين بأن التقدم مطرد، والأحوال تتغير إلى الأفضل، وأن الحركة نحو المستقبل المزهر تتسارع بلا إبطاء. يتطلب الأمر من هذه الآلة المنوط بها مهمة الإيحاء بوجود حركة وتقدم فى مجتمع يشعر الناس فيه بانعدام الحركة، وسيادة الركود، وانتظار ما لن يأتى أبدًا، أن تتسم بالقدرة الفائقة على الخداع والتشبيه والتخييل والتمويه، وذلك بالضبط هو سمات الماكينة الإعلامية الخادمة للطاغوت.

من اللافت للنظر أن سمات الخداع والتشبيه والتخييل والتمويه تكاد تكون هى المعنى اللغوى للفظة «السحر» فى اللغة العربية. ذكر ابن فارس فى مقاييس اللغة أن «سحر»، من الجذر السين والحاء والراء، تعنى من ضمن ما تعنى: خَدْعُ وشبْهَة، أى إخراج الباطل فى صورة الحق، ويقال: هو الخديعة، واحتجوا ببيت «لبيد بن ربيعة» القائل:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

هنالك أيضًا إفادة مهمة تقول: إن معنى السحر لغة ينصرف إلى «فعل» السحر، أى إخراج الشيء على غير حقيقته، وليس إلى «تأثيره» فى هذا الشيء. والفعل هنا خفى، بل ولابد أن يكون خفيًّا حتى نسميه سحرًا»(*). ويستطرد المرجع ذاته تحت عنوان: صفوة القول، قائلا(**):

١- إن حقيقة السحر وماهيته هى خدع وحيل، توهم من لديه استعداد عارض أو أصيل، بأن الشيء على هيئة ليست هى حقيقته، فلا تأثير له (السحر) فى أعيان (حقائق) الأشياء أو الأشخاص.

٢- على الرغم من أن السحر يقوم على خداع الحواس، فإنه لا ينفذ إليها، ولا يحدث تغييرا فى آلية عملها، وغاية ما هناك أنه يقوم بتمويه الشيء موضوع السحر، أى يقوم بإدخال حيل على موضوع السحر، ولا يقوم بتغيير حقيقته، ولكن يظهر الشيء على غير حقيقته».

لذلك عندما عجز فرعون عن مجابهة منطق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك مجابهة معجزة العصا، كان قرار بطانته والمستفيدين من نظامه أن أوعزوا إليه بأن: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١، ١١٢]. إنهم يطلبون من الطاغوت أن يحشد السحرة، وإن شئت قل: أن يحشد جيشًا إعلاميًّا لخداع الناس وإظهار الأمر على غير حقيقته، وإلهائهم عن الحق الذى أتى به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(*) [حقيقة السحر - رانيا رجب شعبان - الشروق الدولية - صـ ٢٣].

(**) المرجع السابق ص ١٣٠.

يصور القرآن المجيد بكل دقة وبأسلوبه الأخاذ، ويصف عمل سحرة فرعون، لحظة مواجهتهم لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعندما طلب منهم موسى أن يلقوا عصيهم، فيقول: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]. لقد سحروا أعين الناس، وأظهروا الأشياء على غير حقيقتها، حتى ظن الناس أن العصى تتحرك، بينما هى ساكنة، لقد خيل للناس أن الحركة قد دبت فى السكون المقيم.

لقد كان التخييل والاسترهاب عظيمًا حسب الوصف القرآنى، حتى إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم ينج هو الآخر من تأثيرهما، حيث يقول الكتاب المنزل: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦]، بل وأصاب الخوف موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧].

لقد وصلت قوة التخييل والإرهاب لأعين الخلق، إلى حد جعلها تتخيل أن الحبال والعصى تتحرك، فى حين أنها لم تكن تتحرك فى حقيقة الأمر. هذا هو بالضبط دور إعلام الطاغية وجوهر رسالته للمحكومين بالاستبداد.

فى مقدورنا أن نرمى هؤلاء السحرة بكل صفات الانحلال الأخلاقى، والانحطاط القيمى، والتدهور، على مقياس المبادئ السامية، لكن لا نملك الحق فى أن نصف أعمالهم بأنها شيطانية. يحمل الأمر فى هذه الحالة قدرًا من الظلم للشيطان. ذلك لأن الشيطان ذاته عندما طلب الإمهال من رب العالمين ليغوى بنى آدم ويدفعهم بعيدًا عن الصراط المستقيم، فإنه حاول أن يستمد القدرة على فعل ذلك من عزة الله، لا من أحد سواه، حسب النص المقدس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، يعلم الشيطان: ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٦٥]، وإنها كذلك: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فلا عزة إلا بالله، ومنه.

أما سحرة فرعون فعقب وصولهم إلى قصره اجتمعوا به للتأكيد على حصولهم على الأجر، فطمأنهم فرعون على حصولهم على الأجر مشفوعًا بشرف القرب منه والحظوة لديه: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ

وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]. عندما بدأ النزال طلب السحرة القدرة على إنزال الهزيمة بموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ متوسلين بالاستمداد من عزة فرعون: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]. لا يقف الأمر هنا فقط عند حد اعتقادهم الشخصى فى أن العزة بيد فرعون الذى يعتبرونه إلهًا وربًا لهم، لكنه يتجاوز ذلك إلى نفث هذه الفكرة فى روع العامة، ترسيخا لسيطرة الطاغوت عليهم. لقد تجاوزوا بموقفهم هذا إلى درك من دركات أسفل السافلين، لم يدر بخلد الشيطان ذاته [تذكر قول من قال: إن مصر ولدت يوم ميلاد مبارك، ومن أحضر فتاة وأخفى وجهها على شاشة التليفزيون لترمى شباب الثورة بالخيانة وتلقى الدعم والتدريب من الخارج].

لا يسعنا فى نهاية الفصل إلا أن نذكر، بأن سحرة فرعون، أصبحوا من المؤمنين، وتحملوا التعذيب والتقتيل والشهادة بعدما تبين لهم الحق، ورفضوا الانصياع والعودة إلى الكفر بعد أن هداهم الله. فهل لمن بعدهم إلى الهداية من سبيل.

نسأل الله الهدى والتوفيق.

* * *

الباب الثانى

الاستبداد الدينى



الفصل الثانى عشر

المقدس والتراث

أولا:

أ) أعلن من البداية الأولى، وبكل وضوح، أننى عندما أتحدث عن الاستبداد الدينى، وألقى الضوء على مصادر هذا الاستبداد داخل تراث الفقه الإسلامى، فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أننى أتوهم أو أصبو أو أهدف أو أريد أو حتى ألمح إلى ترك هذا التراث الفكرى وراء ظهورنا، ليس لأن ذلك فحسب هو المستحيل بعينه، ولكن قبل ذلك لأن هذا التراث الفقهى هو واحد من أعظم روافد الفكر الإنسانى، قدمه بعد جهد جهيد الكثير من العقول الفذة التى وعت زمانها ومكانها، وهو محاولة إنسانية جسورة تتطلع لفهم إرادة الله الخافية وراء نص الكتاب المنزل، ووراء حياة رسوله الأعظم بكل ما تحمله التجارب الإنسانية من صواب وخطإ، ومميزات وعيوب. يقول: د. خالد أبو الفضل[1]: «إن معظم المجددين والمصلحين المسلمين، قد افترضوا أن التراث الفقهى الإسلامى يقف عقبة خطيرة أمام الجهود الساعية إلى تطوير الالتزامات لصالح الديمقراطية وحقوق الإنسان، وعلى نقيض ذلك تماما، فإننى أعتقد أنه إذا كان التراث الفقهى مفهومًا فى السياق التاريخى الصحيح، و إذا ما تم التعامل معه بصورة تحليلية ونقدية، فإنه يمكن أن يصبح قوة مهمة للإصلاح والتطور الرئيسى.

وعلاوة على ذلك، فإننى أعتقد أن تجاهل أو نبذ هذا التراث التفسيرى المؤثر بوصفه

(١) د. خالد أبو الفضل - أستاذ زائر فى كلية الحقوق جامعة يال - والمتفرغ فى كلية الحقوق بجامعة كاليفورنيا - والعضو المستشار فى المنظمات الدولية لحقوق الإنسان. كتاب الإسلام وتحدى الديمقراطية - ترجمة د. قاسم عبده قاسم الشروق الدولية صـ ٤٣.

غير مناسب، ويمكن الاستغناء عنه، لن يخدم فى تعليم وتقوية الإصلاحيين المسلمين، ولكنه سوف ينكر عليهم الشرعية ويفقرهم فكريًّا».

والخلاصة أن من يريد تجاهل التراث الفكرى والفقهى الإسلامى بالكلية، يفقد شرعيته بالكلية فى الادعاء بالإصلاح والتجديد الدينى، علاوة على الخصم من رصيده الفكرى إلى حد الإفلاس.

إن ما نهدف إليه هو التعامل بصورة نقدية تحليلية لهذا التراث الفقهى الضخم والثرى، مع حسن التعامل داخل، الإطار التاريخى والمسار الزمنى.

ب) لا ينبغى أيضًا من جهة أخرى أن يكون التعامل مع كل فكر نقدى تحليلى للتراث الفقهى على أنه خروج عن الملة، وأنه كفر خفى أو جلى، مع تسليط عقدة الدونية للخلف أمام السلف، ومحاولة إلباس عمليات الحجر على الفكر وتقييد إعمال العقل ثوب الحفاظ على الدين، وحماية العوام من الفتنة، ثم تسليط سلاح فكرة المؤامرة الكونية على القائمين بالتفكير من مثل الإشارة إلى أن ذلك هو البداية لتقويض دين الله وكتابه بالهجوم على السنة النبوية، ثم الحديث عن الاستشراقية والاستغرابية والصهيونية والصليبية والعلمانية والماسونية، حيث لم ينج من ذلك أحد حتى بعض مشايخ الأزهر الشريف ذاته. وفى النهاية فليس فى مقدور مخلوق أو مجموعة من الناس أو مؤسسة من المؤسسات إيقاف تيار الزمن المتدفق، وتراكم المعرفة الإنسانية ومنع تعلق العقول الجديدة والأفهام الحديثة بكتاب الله وسنة نبيه، فذلك هو من سنن الله الكونية، ودوام الحال من المحال.

ج) أنا أيضًا على تمام اليقين بأن الأزهر الشريف هو الجهة الأولى والأساسية، والوعاء الحاضن الذى يملك القدرة والشرعية على القيام بمهمة التجديد والتخلص من الاستبداد الدينى، إذا بدأ بنفسه أولًا، ثم بمن يعول فى عموم العالم الإسلامى.

ثانيا: قواعد أساسية إيضاحية:

لتحرير المسألة سيكون التزامنا بالتعريفات والإيضاحات التالية:

أ) معنى التراث[1]:

الجذر هو «ورث»، والواو والراء والثاء تعنى الورث والميراث، الذى هو: «أن يكون الشىء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو بسبب». ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩].

أى أن التراث هو: نتاج المجهودات الإنسانية الواعية، سواء أكانت مادية أم فكرية قام بها السابقون وتركوها لمن أتوا بعدهم».

لذلك يخضع التراث للزمان، ويتغير بتغير الأمكنة، وينتمى الفقه الإسلامى إلى هذا الصنف بكل وضوح.

ب) معنى المقدس:

تعنى القاف والدال والسين: الطهر. ويعنى اسم القدوس: المنزه عن الأضداد والأنداد.

وبذلك يكون المقدس هو: «الذى لا يمس ولا يحرف ويعلو على المكان وعلى الزمان».

لذلك: المقدس صالح لكل زمان ولكل مكان. وعندما تلتحق به أفهام الناس يصبح تأويله الإنسانى (تراث) متغيرًا فى كل زمان ومكان، وفقًا للقاعدة المعرفية الخاصة بإنسان هذا المكان وهذا العصر.

كتاب الله المنزل هو المقدس بلا جدال ولا مراء.

ج) إن الدين والشرع داخل كتاب الله ومن خلال آياته هو المقدس، أما فهم الناس لهذه الآيات، وتفسيرها وتأويلها واستخراج الأحكام منها، فليست هى الدين، بل هى فهم الناس للدين، وهذا الفهم هو تراث ينتقل من السلف للخلف، ويخضع لقيود الزمان والمكان، ولا قداسة له.

د) يترتب على ما سبق أنه لا ينبغى التعامل مع المقدس على أنه تراث، وكذلك لا ينبغى وليس من الممكن أو المقبول أن يكون التراث مقدسًا.

---

(١) د. محمد شحرور - الكتاب والقرآن - دار الأهالى - المقدمة.

هـ) يتأسس على ما سبق أيضًا أن التجديد فى الفكر الإسلامى، لا يستلزم على الإطلاق، بل لا يقدر ولا يستطيع بالتعريف نبذ أو تجاهل التراث الفقهى الإسلامى، لأنه هو المادة التى سيعمل عليها التجديد، ولذلك فلا بد من دراسة هذا التراث الفقهى بعمق، وقتله بحثًا وتمحيصًا (حسب قول الشيخ أمين الخولى). وفى النهاية لا وجود لحاضر أو مستقبل لمن لا تاريخ له.

و) ينبغى فى الوقت نفسه ألا يكون التعامل مع التراث إلا فى إطار السياق التاريخى الصحيح له، (فليس على المسلمين أن يقدموا مبررات اعتذارية للناس فى الوقت الحالى عن زواج العرب قديمًا من بنات صغيرة السن، فذلك زمن قديم له متطلباته)، كذلك لا يتوجب إخراج التراث من سياقه الزمنى للحكم به على الأزمنة الحالية أو الأمكنة المختلفة (من مثل ربط المسلمين بالجلباب والعمامة والخف فى وقتنا الحالى، وفى كل بقعة فى الأرض). التراث أسير للزمان ولقيود المكان.

ز) التعامل مع التراث هو تعامل مع غير المقدس المتغير، فلا محل لدفع كل فكر تحليلى نقدى للتراث بمختلف تهم الردة والكفر وما يجرى مجراهما.

ثالثا: نوجز الأمر فى المقدس والتراث كالآتى:

أ) كتاب الله المنزل هو المقدس:

لأنه جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. الكتاب المنزل هو كلام الله، ولأن الله هو القدوس فكلامه مقدس يعلو على الزمان والمكان، ويصلح لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ب) الفقه أو الفهم أو التأويل لكتاب الله وآياته: هو مجهودات بشرية نتجت عن محاولة الناس لفهم مراد الله من آياته بالتأويل واستخراج الأحكام، فهى تراث تجرى عليه أحكام الزمان والمكان، ويتغير بتغيرهما، لأن القاعدة المعرفية للناس تتغير وتتطور على مر الزمان وباختلاف المكان.

ج) إذن فمن يتعامل مع كتاب الله المنزل بوصفه نصًا تاريخيًا يريد أن يقيده بقيود

الزمان والمكان، فهو بكل وضوح يريد أن ينزع القداسة عن كتاب الله ويعامله معاملة التراث الناتج عن المجهود الإنسانى مهما ادعى غير ذلك.

د) من يريد أن يخرج التراث من قيود الزمان أو قيود المكان، ويجعل من فهم إنسانى لكتاب الله كان فى زمن معين ومكان ما صالحًا لكل مكان وصالحًا لكل زمان، فهو بكل وضوح يرغب فى أن يضفى القداسة على مجهود إنسانى ليعامل معاملة كتاب الله المقدس وإن ادعى غير ذلك.

وسنزيد الأمر إيضاحًا.

* * *

الفصل الثالث عشر

إخضاع المقدس للقيد الزمانى

أولًا: أوضحنا في الفصل السابق معنى المقدس، ومعنى التراث، وقلنا:

أ) المقدس: هو كتاب الله المنزل وحده، لأنه كلام الله، وهو لا يخضع لقيود الزمان وقيود المكان، و إن أى محاولة لإخضاعه لمعايير زمانية أو مكانية هو بمثابة نزع القداسة عنه وتحريفه والهبوط به إلى مرتبة التراث.

ب) التراث: هو نتاج المجهودات الإنسانية الواعية المادية والفكرية والثقافية، لذلك فهى متوارثة حسبما يشى به اسمها، حيث يسلمها السابقون للاحقين، وهى تخضع للزمان والمكان، وأى محاولة ترمى إلى انعتاق التراث من قيوده الزمانية والمكانية هى بمثابة إضفاء للقداسة على أعمال البشر، وطلب لمساواته بكلام الله.

يعنى ما سبق أن الزمان هو العنصر الحاسم والأساسى قبل المكان فى التفريق بين المقدس وبين التراث، فالأول متجاوز له حين يخضع الثانى لقيوده.

قلنا كذلك فى مقالاتنا عن الاستبداد السياسى: إن الاستبداد عمومًا يعمل على محاولة إبطاء الزمن أو تعطيله بدعاوى الحفاظ على الاستقرار، حيث المراد هو الركود والخمود، أو بذرائع الدفاع عن ثوابت العقيدة، وعمّا هو معلوم من الدين بالضرورة، وأن التجديد مقصور على فئة وحيدة من الناس، وأن الأمور قد حسمت من السابقين وحازت الإجماع، ويجب محاسبة كل من يحاول إيقاظ الفتنة.. وذلك كله ليس إلا مقاومة لجريان الزمن بغرض الحجر على الفكر، وتجميد الزمن عند حد معين، اختاروه هم بزعمهم، حيث هو مجال دراساتهم وشهاداتهم وتخصصهم ومصدر رزقهم ووجاهتهم.

ثانيا: ماذا فعل الاستبداد الدينى بدين الله المنزل؟

إخضاع المقدس للقيد الزماني:

أ) دعوى النسخ: هى دعوى نشأت للرد على اليهود فى ادعاء التناقض فى القرآن، وعلى أن الله يفعل ما يبدو له (البداء)، وساعد عليها وقوع التوهم فى ذهن المجتهدين بحصول التعارض بين نصوص الكتاب المنزل، بحيث لا يمكن رفع ذلك التعارض أو التضاد (المتوهم) فى ذهن المجتهد بين نصين من نصوص كتاب الله بدون التخلص من أحد النصين، حيث يحكم المجتهد بإبطال أحد النصين أو إزالته، أو رفعه، أو تبديله..، من مثل نسخ آية الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

آية المواريث: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١١، ١٢].

عن ذلك يقول د. طه جابر العلوانى[١]: المهم ألاَّ يبقى إلا أحد «النصين» -أى المتأخر منها - معمولًا به. وهنا يصبح السبيل الوحيد لتعيين ما هو ناسخ وما هو منسوخ -الزمن

---

(١) نحو موقف قرآنى من النسخ - الشروق الدولية - صـ ٣٥.

وحده - فالتأخر الزمانى كاف لجعل النص المتأخر ناسخًا للنص المتقدم زمنيًا، بقطع النظر عن أى اعتبار آخر - وهنا يصير التأخر الزمانى ميزة هائلة، ويكون التقدم الزمانى عبثًا يكفى لإبطال مفعول النص و إزالة أثره وتبديله وتغييره».

وخلاصة ما سبق أن الزمن هو المعيار الوحيد الذى يقوم عليه حكم الإنسان بإبطال آية من آيات النص المقدس داخل دعوى النسخ.

بذلك فليس هناك من معنى آخر لدعوى النسخ إلا أنها أخضعت كلام الله المقدس للزمن، وهى بذلك وبدون حياء ولا مداراة ولا تبريرات قد هبطت بكلام الله المقدس متدنية به إلى مستوى التراث الناتج عن الجهد الإنسانى، وتعرضه لطعنات من يريدون نزع القداسة عنه ومعاملته كنص تاريخى نزل فى القرن السابع الميلادى على جماعة من العرب يعيشون فى منطقة الحجاز داخل الجزيرة العربية. تتجلى طبائع الاستبداد فى أن من يصرون على وجود النسخ فى القرآن الذى يحوله إلى نص تاريخى هم أنفسهم من طاردوا الذى قال بذلك وكتب عن معاملة كتاب الله كنص ثقافى وحكموا بردته، وحاولوا تطليقه من زوجته، ولم ينجه من ذلك إلا اللجوء إلى خارج بلاد المسلمين. لا تؤدى دعوى النسخ إلا إلى معاملة المقدس بوصفه تراثا يخضع للزمان وحدود المكان.

ب) جريمة دعوى النسخ فى حق دين الله الإسلام:

من مزاعم دعوى النسخ المجازفة قولهم: إن قول الله - جل وعلا -: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة: ٥] وهى الآية التى أطلقوا عليها مسمى آية السيف، ناسخة لمائة وأربع عشرة آية....... هكذا.

لقد نسخت آية السيف العدد الكبير من آيات الصفح والعفو وحسن التعامل مع الآخرين. فمن الآيات التى نسخت بآية السيف:

(١) ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(٢) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

(٣) ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

(٥) ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

(٦) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(٧) ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

(٨) ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

(٩) ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

تلك بعض أمثلة مما فعلته آية السيف وحدها فى القضاء على قيم الصفح والعفو والغفران واحترام حرية العقيدة للآخرين وحسن المعاملة والإحسان داخل كتاب الله.

أستطيع أن أزعم دونما تجنى أن دعوى النسخ فى كتاب الله المنزل هى واحدة من العباءات التى خرج من تحتها كل أعمال الجماعات التكفيرية، والإرهابية، والتى تستحل دماء المسلمين قبل دماء غير المسلمين، والتى تقتل أهل أوطانها وتروعهم وتستحل دماء جيوشهم وشرطتهم وتقتلهم بدم بارد وبلا جريمة ساعة إفطار رمضان وهم يحرسون حدود وطنهم.

وإن تعجب فعجب لمن يؤمنون بالنسخ فى كتاب الله ويصرون على أنه من ثوابت العقيدة ومن المعلوم بالضرورة من الدين، ويلمحون إلى ردة منكرى النسخ ثم بعدها يدينون الإرهاب والجماعات التكفيرية ويفاخرون بأنهم حراس الدين وأهل الوسطية، ويدعون التكفيريين والإرهابيين إلى الجدال بالتى أحسن، وهى آية منسوخة فى يقين طرفى الحوار المطلوب.

إن كتاب الله المنزل هو المقدس الذى يتعالى على الزمان والمكان، ويصلح لكل زمان ومكان، محفوظ فى قلوب المسلمين، لا يلحقه تحريف ولا نسخ ولا إبطال.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩١، ٩٢].

والتعضية هى قسمة ما لا ينقسم.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع عشر

بطلان دعوى النسخ فى القرآن

نكمل مع دعوى النسخ فى القرآن، والتى قلنا: إنها أدخلت عنصر الزمن كقيد على بعض نصوص الكتاب المقدس، وكأنها نزعت عنه القداسة التى تقتضى التعالى على قيود الزمان والمكان، وكأنها أيضا تعاملت مع المقدس كأنه تراث من نتاج مجهودات البشر يخضع لقيود الزمان وقيود المكان.

وعلى الرغم من أن دعوى النسخ فى القرآن هى من أشد نتائج الاستبداد الدينى، فإن ما لا يقل عن ذلك استبدادًا هو تقديم هذه الدعوى بوصفها من ثوابت الدين، ومن المعلوم منه بالضرورة، دون الإشارة إلى وجود معارضة لها من بين أهل الفقه من القدامى ومن المحدثين.

سوف أقتصر فى الإبانة عن الرأى المعارض لدعوى النسخ فى كتاب الله على آراء ثلاثة من رجال وعلماء الأزهر الثقات، وأولهم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والشيخ محمد الغزالى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والشيخ طه جابر العلوانى.

أولًا: أ) يقول الشيخ شلتوت[1]: «نقل الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى، - وهو ممن لا يرون وقوع النسخ فى القرآن - أن الآية: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥]. خاصة بجريمة المرأتين إحداهما مع الأخرى (السحاق) وعقوبتها كما جاء فى الآية: «الحبس إلى الموت»، وأن الآية الثانية وهى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة - دار الشروق - ط ١٩ صـ ٢٨٢.

﴿كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦] خاصة بجريمة الرجلين أحدهما مع الآخر وعقوبتها كما نطقت الآية: الإيذاء بالقول والفعل. وأن آية النور وهى قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] خاصة بجريمة الرجل مع المرأة وعقوبتها الجلد، وبذلك يكون القرآن فى نظر أبى مسلم الأصفهانى قد استكمل عقوبة الجناية على العرض فى جهاتها الثلاث، وتكون الآيات كلها محكمة لا نسخ فيها.

ب) يقول الشيخ محمد الغزالى بخطأ[1] الذين قالوا بأن النسخ فى بعض الآيات التى كانت فى مرحلة من المراحل تشكل حلًّا لمشكلة قائمة، ثم حينما ارتقى المجتمع وجاءت مرحلة أخرى قالوا بأن الآية نسخت، مع أن المجتمعات تتكرر فيها مثل هذه الحالة السابقة. (أوضح ذلك بمثال ليس من قول الشيخ الغزالى، وهو أن يأتيك من يريد دخول الإسلام وقد اعتاد شرب الخمر طوال حياته، فعليك بتطبيق التدرج الوارد فى كتاب الله معه، حتى يتمكن الإيمان من قلبه، ثم تصل به إلى مرحلة طلب الإقلاع النهائى عن الخمر، بدلًا من مواجهته بذلك من اللحظة الأولى، فقد يفقد رغبته فى الإسلام).

ويستطرد الشيخ الغزالى قائلًا: «هذا يشبه حالة النهى عن ادخار لحوم الأضاحى كما ورد فى قول الرسول: «إنما نهيتكم - أى عن أكل الأضاحى بعد ثلاث - من أجل الدافة (الضائقة) التى دفت، فكلوا وادخروا وتصدقوا»، رواه مسلم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

ففى يوم ما قال: لا تختزن لحوم الأضاحي! لماذا؟ لأن الناس فى أزمة وفى حاجة إلى توسعة. ثم قيل: خزنوا لحوم الأضاحى، لأن الناس لا تحتاج إلى كل ما ذبح. (جاء الفقهاء فقالوا): إن (الحديث) الثانى نسخ (الأول)، والحقيقة هي: أن الحكم الخالد هو: إذا كان اللحم الموجود قليلًا فلابد من التوزيع وعدم الادخار، و إذا كان كثيرًا تستطيع أن تدخر. والحكم الجزئى الخطأ أنك قلت: كان الادخار ممنوعًا، ثم أبيح، هذا غير صحيح، إنهم يظنون أن حكمًا انتهى أمره، لأن القصة لا تتكرر، القصة إذا تكررت تكرر معها المتصل بها.

ويقول فضيلته عن النسخ فى كتاب الله: إن الاتجاه بين جميع العلماء المحدثين الذين

(١) كيف نتعامل مع القرآن - مدارسة - دار الوفاء للنشر - صـ٨٠ المعهد العالمى للفكر الإسلامى.

التقيت بهم أو استمعت إليهم أو قرأت لهم كانوا ضد المعنى الذى شاع بين المتأخرين من أن النسخ يعنى إبطال آيات فى القرآن.. وجدت أن الشيخ الفقيه المؤرخ الأستاذ «محمد الخضرى» رفض النسخ رفضًا باتًا، وقال: لا يكون إلا تخصيص عام أو تقييد مطلق أو تفصيل مجمل، والشيخ «رشيد رضا» تكلم عن آية: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]. فبين أن الآيات (إما) تكليفية (أو) تكوينية، وليست هناك آيات تكليفية نسخت بهذه الآية.. ومعنى التكوينية هو خوارق العادات التى كان يؤيد بها الأنبياء، وهى التى تتغير بتغير الأزمنة (من مثل ناقة صالح - وآيات موسى التسع: الجراد والقمل والدم والعصا..).

أما الآيات التكليفية عند قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١]. فقد قال الخازن عالم التفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية: إن هذه الآية جاءت ردًا على أسئلة بأن محمدًا يقرر حكمًا ثم ينسخه، فتساءلت هذه الآية من سورة النحل المكية(١): أين هى الأحكام التى تندر المشركون بها لأنها نسخت بعد أن نزلت؟.. وهذا الكلام عن سبب نزول الآية مختلق.. لأنه ما وجد حكم فى مكة نسخ بآية مكية.. لم يعرف فى تاريخ النزول أو تاريخ التشريع أن حكمًا نزل فى مكة، ثم نزل فى مكة نفسها حكم ناسخ له، القرآن لم يعرف ذلك.

ج) يقول «د. طه جابر العلواني»(٢): إن اعتبار القول الركيك المترجم عن التوراة «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» من القرآن هو طعن ببلاغة القرآن وفصاحته ونظمه، ولا يرتقى إلى مستوى أحاديث أفصح من نطق بالضاد سيدى رسول الله. وأول بروز هذه الشبهة فى حديث جاء فى موطإ الإمام مالك برواية الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة، توفى (١٨٩هـ) حيث جاء فى الحديث: «خبرنا مالك حدثنا يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: لما صدر (رجع) (يقصد عمر بن الخطاب) من منى ثم أناخ (حط

---

(١) لم تتضمن السور المكية أحكاما، فالأحكام جاءت فى مرحلة المدينة.

(٢) نحو موقف قرآنى من النسخ - طه جابر العلواني - الشروق الدولية، ص ١٢٧ وما بعدها.

بعيره) بالأبطح (مكان).. ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى.. ثم قدم المدينة فخطب الناس، فقال:... إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم... فقد رجم رسول الله ورجمنا، والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله تعالى «الشيخ والشيخة...»».

ثم يورد د. طه العلواني:

١ - علماء الحديث نسبوا إلى سعيد بن المسيب روايته عن عمر، وسعيد ولد قبل استشهاد عمر بسنة.. فهل هناك حلقة مفقودة؟

٢ - إننا لا ننفى عن هذا الإصحاح أنه من إصحاحات التوراة، لكننا ننفى عنه القرآنية، بل نذهب إلى استحالة ذلك، ونؤكد استحالة أن يكون حديثًا من أحاديث أفصح من نطق بالضاد... فلفظ الحديث يبدأ بـ «الشيخ والشيخة»، ولم يعرف فى العربية ولا فى الاصطلاحات الفقهية أن الشيخوخة تفيد الإحصان (الزواج).

٣ - إن القرآن حين ذكر جريمة السرقة بدأ بذكر «السارق والسارقة» لأن الغالب أن تقع السرقة من الرجال، وأما الزنا فإن القرآن قد بدأ بذكر «الزانية والزانى» لتوقف هذه الجريمة على استعدادها ورضاها. (فى الآية المزعومة بدأ بالشيخ، ولم يبدأ بالشيخة).

٤ - أما القول بأن الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قد نسخت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ظنًّا منهم أن الآيتين قد وردتا على مورد واحد ألا وهو فترة العدة. والحق أن مورد الآيتين مختلف تمامًا، فالأول جاء مراعيًا للتخفيف عن المنتمين إلى الأسرة، وفى مقدمتهم الزوجة، فهى قائمة فى المنزل، وأبناؤه يترددون عليه، وذكراه بينهم لكى يأخذ كل منهم فترة كافية للصبر والسلوان، وفترة إعادة ترتيب الحياة لا يمكن أن تتم بشكل ملائم فى أقل من عام. أما الثانية فالتربص بالنفس لاستبراء الرحم وللتهيؤ لاستئناف دورة حياتية جديدة قد تكون الأربعة الأشهر والعشر

الليالى حدًّا أدنى كافيًا لذلك. فلا نسخ بين الآيتين لاختلاف موضوع ومورد كل منهما. (انتهى).

وأختم هنا بأن القول بأن الرسول قد رجم قد ورد فى الأثر، ولكن قد يكون ذلك قبل نزول سورة النور، حيث كان الرسول يحكم بشرع من قبلنا حتى يأتيه الحكم من الوحى. يؤيد بذلك الحديث[1] (٦٨٤٠) بالبخارى، عن سليمان بن فيروز الشيبانى: سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الرجم، فقال: رجم النبى ﷺ، فقلت: أقبل النور أم بعده؟ قال: لا أدرى.

ليست دعوى النسخ من الثوابت ولا يندرج إنكارها وعدم الأخذ بها تحت مسمى إنكار المعلوم من الدين بالضرورة، ومن يقُلْ بذلك فليقرأْ هذا الفصل من أوله من جديد.

❋ ❋ ❋

(١) تيسير صحيح البخارى - د. موسى شاهين لاشين - الشروق الدولية.

الفصل الخامس عشر

إضفاء القداسة على التراث الفقهى والفكرى

لم يكتف الاستبداد الدينى فى محاولته لفهم وتأويل والتعامل مع كتاب الله المنزل والمقدس بإدخال مفاهيم أدت إلى وضع المقدس تحت قيد الزمان، وكأنهم ينزعون عنه القداسة بوعى أو بدون وعى، بل تقدم خطوة إضافية على طريق الاستبداد، عاملًا على تخليص الفهم الإنسانى لكتاب الله - وهو التراث - من قيود الزمان، وكأنه من حيث يدرى أو لا يدرى يضفى القداسة على الجهد الإنسانى المتوارث.

ولكى يصبح التراث الفكرى والفقهى للمسلمين مقدسًا لا يجوز الاقتراب منه إلا لسدنة الأمر، ولكى ترفع عنه قيود الزمان، وهو أمر ليس باليسير، لجأ الاستبداد الدينى إلى ترسيخ عدد من المفاهيم جاءت من لدن أهل الاستبداد الدينى، بحيث تقدم وكأنها جزء من دين الله المقدس، من مثل ما يسمونه «المعلوم من الدين بالضرورة»، تلك العبارة التى ترفع بعموميتها الظاهرة والمفرطة لإخراس الألسنة ورفض التجديد، وبث الرعب فى قلوب الناس، لأن التكفير والإدانة بالارتداد هى الخطوة التالية فى منطقهم لكل من يخالف المعلوم من الدين بالضرورة.

واستلزم رفع القيد الزمنى عن التراث أو الجهد الإنسانى بعض الحيل التى جاءت لدعم أن التراث لا يخضع للزمن وأن الزمن توقف من أجل التراث وامتنع جريانه من مثل:

(١) الترويج للفترة الزمنية التى أوقف المستبد الدينى عندها سريان الزمن، بوصفها فترة ذهبية غير قابلة للتكرار احتكرت الفضل كله، ووصل فيها العلم إلى مبلغه، ولم يترك أهلها الذين استأثروا هم فقط بعطاء الله الذى لا ينفد فضلا لمن بعدهم، ومن المستحيل على كل من يأتى بعدهم من خلق الله الخلاق العليم أن يتجاوز ما قدموه، وسُميت هذه الفترة بالقرون المفضلة، وهى القرون الثلاثة الأولى بالتقويم الهجرى.

(٢) يتأسس على ما سبق أن يمتنع التفكير، فلا حاجة للمزيد على القرون المفضلة، وتوجب تعطيل العقل المسلم ومحاصرته والحجر عليه، فلا حاجة ولا مجال للتدبر الذى قصر على فهوم السابقين المفضلين، ويشكل منع التفكر عدوان على كتاب الله الذى يحض الناس على التفكير.

(٣) إيقاف الزمن يؤدى إلى الاختزال، فاختزل كتاب الله المنزل فى آيات الأحكام، واختزلت كلمة الفقه التى جاءت فى الكتاب المنزل لتعنى مفهومًا اصطلاحيًا صك فى القرون المفضلة.

وقبل أن نفند دعاوى الاستبداد السابقة من داخل كتاب الله الكريم وسنة نبيه ذى الخلق العظيم أود أن ألفت النظر إلى السبب الذى دعانى إلى القول فى فصل سابق بأن رمز الاستبداد الدينى فى كتاب الله المنزل هو «هامان»، حيث قدم لنا القرآن لجوء «فرعون» إلى «هامان» عندما أعياه الرد على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيما جاء به مما يتعلق بخبر السماء ووجود الإله المتعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وجاءت كلمة «هامان» من الفعل «هـ م ن» ومنه نقول: «المهيمن» وهو من أسماء الله الحسنى، وتعنى حسب معجم الصحاح فى اللغة: الشاهد، وهو من أمن غيره من الخوف. ويقول الزمخشرى فى تفسيره عن اسم المهيمن إنه: هو الحافظ والرقيب، لذلك جاء «هامان» لقبًا للشخص الحافظ لأوامر الآلهة، وهو أيضًا الرقيب عليها بين الناس، فكأنما هو الواسطة بين الناس وبين الله..

نقض زعم قصر الخيرية على قرون مفضلة

لا شك ولا جدال فى خيرية السابقين من المهاجرين والأنصار الذين شرفهم الله بصحبة الرسول الأكرم، وبوجودهم زمن بعثه، ولا مراء كذلك فى خيرية من اتبعوهم بإحسان، لكن قصر الخيرية عليهم، ونفى لحوق الناس بعدهم بما حبا الله به هؤلاء الأوائل هو زعم لا يؤيده كتاب الله، ولا تدعمه سنة نبيه الخاتم.

دلائل نقض هذا الزعم فى كتاب الله المنزل[1]:

أ) يؤكد كتاب الله على أن الخيرية موزعة على مدى القرون حتى نهاية الزمان حيث يقول بكل وضوح: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، الخيرية هنا بكل تأكيد فى السابقين من المهاجرين والأنصار، وهى أيضًا - بالتأكيد نفسه - فى الذين اتبعوهم بإحسان من القرون التالية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فلا احتكار للخيرية فى قرون بذاتها إلا فى ذهن من يريد أن يحظر عطاء الله لخلقه فى حين أن عطاء الله غير محظور.

ب) يقول كتاب الله أيضًا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣١، ٣٢]، تنص الآية بوضوح لا يقبل الجدل على أن من يأتون بعد زمان الوحى للنبى ﷺ، أناس يرثون «الكتاب» وينقسمون مثل سابقيهم، وفيهم السابقون بالخيرات، وهم أهل الفضل الكبير، فلا فضل لسابق على لاحق إلا بموقفه من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

ج) وكما جاء وصف أناس المرحلة النبوية من المهاجرين، وكذلك من الأنصار، جاء وصف كتاب الله لمن يأتون من بعدهم، بما يوضح بجلاء أن الخير غير محصور بزمان، وأنه لا ينفد مع كثرة الليالى والأيام، يقول كتاب الله عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم يتبع ذلك بوصف الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن. مرجع سابق صـ ١٦، ١٧.

ثم يأتي الوصف لكل من سيأتي من بعدهم بالقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فضل الله عميم، وعطاء ربك غير محظور، يختص بخيره ورحمته من يشاء، وما عند الناس ينفد، وما عند الله باق، ومن ضيق ضيق الله عليه، والله واسع عليم.

* * *

الفصل السادس عشر

بطلان الزعم بقصر الخيرية على زمن معين

أولًا: الرد من السنة النبوية ببطلان الزعم بقصر الخيرية على القرون الثلاثة الأولى:

هناك ثلاثة أحاديث نبوية جاءت كالآتى[1]:

أ) حديث رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - فى كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، يقول: «**بلغوا عنى ولو آية**».

ب) حديث رواه الترمذى فى سننه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى أبواب العلم، باب الحث على تبليغ السماع، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، يقول: «**نضر الله امرأ سمع مِنَّا شيئًا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع**».

ج) حديث رواه الترمذى فى سننه من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى باب الحث على السماع، وقال: حديث حسن، يقول: «**نضر الله امرأ سمع مِنَّا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**».

يقول أ. عمر عبيد حسنة عما سبق من أحاديث: «من المفارقات العجيبة للعقل المسلم جرأته على إلغاء التكليف القرآنى بالنظر والتدبر، (وكذلك) إسقاطه (لهذا الأمر القرآنى بالتدبر) باجتهاد بشرى، وذلك لعدم إدراك (هذا العقل المسلم) للنص النبوى [الذى هو فى الأساس] بيان قرآنى - والذى يقرر: إنها قد تأتى فهوم مستقبلية أكثر وعيًا وإدراكًا للنص

---

(١) مدارسة كيف نتعامل مع القرآن - مرجع سابق، صـ ١٨ - ١٩.

القرآنى: «بلغوا عنى ولو آية»، «فرب مبلغ أوعى من سامع»، «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

تختلف الفهوم الإنسانية وفقًا للقاعدة المعرفية للأزمنة المختلفة، وكل عصر يحمل رؤيته الخاصة به التى ينتج عنها مشكلات تميز هذا العصر، فلابد من اصطحاب الاجتهادات السابقة، لكن لا ينبغى الاقتصار عليها. ومما لاشك فيه أن المعرفة تزداد وتتقدم مع تقدم الزمن، إذن فليس من المحتم أن حامل الفقه إليك هو بالضرورة أفقه منك فى كل الأحوال، بل يشير الحديث إلى أن من الخلف من هو أفقه وأبعد نظرًا وأكثر وعيًا من السلف، وهذا من طبيعة الأمور.

هناك حديث آخر عند الترمذى وأحمد عن أنس، وعن على عند أبى يعلى، وعن ابن عمرو وابن عمر عند الطبرانى يقول[1]: «مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره».

فلا انحصار للخيرية فى الأولية، بل هو أمر تأباه طبائع الأمور.

ثانيا: اجتراء الاستبداد الدينى على كتاب الله المنزل:

أ) إلغاء حق المسلمين فى النظر والتدبر فى كتاب الله إلى يوم الدين:

الدعوة إلى قصر التأويل لكتاب الله على التفاسير التى قدمها الرعيل السابق من أمة محمد ﷺ، لا يعنى إلا إلغاء حق من أتى بعدهم بالنظر والتدبر وتأويل كتاب الله وفقًا لمعطياتهم الخاصة بزمانهم ومكانهم.

i) يقول: د. طه جابر العلوانى[2]:

لقد حدد القرآن نفسه مواصفاته باعتبار كلام الله، وأوضح أنه وحى كامل يستجيب لما كان من حالات تاريخية سابقة، ويستمر فى اتجاه المستقبل: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ

---

(١) الدولة والمجتمع - د. محمد شحرور - صـ ٢١٩.

(٢) مدارسة كيف نتعامل مع القرآن - المقدمة - مرجع سابق.

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣١، ٣٢]، الكتاب الكريم متجدد العطاء، وتنكشف مكنوناته طبقًا لحالات الاستدعاء الزمانى. لقد أنزل الكتاب على الأولين، ثم ورثه مَنْ بعدهم حتى وصل إلينا، ثم سيرثه من يأتى بعدنا، وهكذا، ولكل من كتاب الله نصيب.

ii) يقول الأستاذ عمر عبيد حسنه[1]:

١- إن عدم التدبر مرفوض من وجهة نظر كتاب الله نفسه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

٢- أدى هذا الحجر على إعمال العقل فى تدبر القرآن، وحصر أفهام الناس فيما قدمه السلف إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية، وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة إلى الركود والتحنط فى بطون التاريخ.

ترتب على ما سبق نتائج أشد بشاعة خرج بها كتاب الله أو كاد من حياة المسلمين، وهو ما سنوضحه فى الفصل القادم.

❋ ❋ ❋

---

(١) المرجع السابق - مقدمة.

الفصل السابع عشر

الاجتراء على كتاب الله بتعطيل العقل المسلم

أولاً: تعطيل كتاب الله بتعطيل العقل المسلم:

(١) يقول أ. عمر عبيد حسنة مستطرداً:

أ) تلا ما سبق نتيجة أشد خطورة، وهى أن الصورة التى طبعت فى أذهاننا للقرآن منذ مراحل الطفولة، حيث أصبح كتاب الله المنزل قابعًا خارج الحياة الواقعية للمسلمين، أنه لا يستدعى إلا فى حالات:

١- الاحتضار والنزع والوفاة.

٢- عند زيارة المقابر.

٣- لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية.

وهى قراءات لا تتجاوز فى كل حالة تحريك الشفاه.

وأزيد أنا على قوله أن فى العقود الأخيرة والتى وصفت بعقود الصحوة الإسلامية والعودة إلى الدين والتدين الذى أطلق عليه الكاتب «فهمى هويدى» فى أحد كتبه: «التدين المنقوص»، أن استدعيت تلاوة كتاب الله داخل السيارات الخاصة ووسائل المواصلات العامة المزدحمة، وكذلك تنبعث بصوت يصم الأذان من موتوسيكلات توصيل الطلبات للمنازل، وكأنما أصبح الضجيج العالى المزعج علامة على الإيمان، وذلك ليس بالطبع بإنصات ولا حتى مجرد استماع ولا تسأل عن التدبر والفهم.

يضيف أ. عمر عبيد حسنة قائلًا:

ب) وإذا ذهبنا إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا الطريقة التى يعلم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر، إن لم يكن ذلك مستحيلًا. ينصرف الجهد كله إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف وكأننا نعيش المنهج التربوى والتعليمى بالمعكوس، فالإنسان فى الدنيا كلها يقرأ ليتعلم، أما نحن فإننا نتعلم لنقرأ، لأن الهم كله ينصرف إلى حسن الأداء.

نحن لا نهون من أهمية ضبط الشكل، وحسن الإخراج، وسلامة المشافهة، لكنا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتدبر والتفكر التى تتوافق مع القراءة.

يجب أن تنصب جهودنا على منهج الفهم، وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التى أورثتنا ما نحن عليه، والتحرر من تقديس الأبنية الفكرية الاجتهادية السابقة، والتى أدت إلى خروج الفكر والرؤية القرآنية من واقعنا المعيش.

وأكرر: ليست هذه دعوة إلى التخلص من الميراث الثقافى الذى يعتبر مفخرة من مفاخر الفكر، وليس دعوة للاغتراف مباشرة من القرآن بدون مؤهلات، لكننا ضد قصر الفهم والإدراك على مفهوم السابقين، فهو الذى ساهم بقدر كبير فى الانصراف عن تدبر القرآن، وشيئًا فشيئًا تحولت القدسية من القرآن إلى السنة النبوية، فجعلت من السنة حاكمة على القرآن، ثم انتقلت القدسية إلى فهوم البشر (التراث)، وبقى الكتاب والسنة للتبرك.

ثانيا: الحصر المكانى للكتاب المنزل وللرسالة النبوية:

يقول: أ. عمر عبيد حسنة:

من أخطر الإصابات التى لحقت بالعقل المسلم - فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال - التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التى استمدت من القرآن فى العصور الأولى هى نهاية المطاف، ما أدى إلى الاقتصار على هذا المنهج فى النقل والتلقى، وبذلك تم حصار الخطاب القرآنى نفسه، فحدث أن قضى ما سبق على امتداد كتاب الله وخلوده وقدرته على

العطاء المتجدد، و إلغاء شموله المكانى، وتعطلت الآية التى تحقق شمولية الكتاب والرسالة لكل مكان: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

مثلما أوقف تجاوز كتاب الله ورسالة نبيه الخاتم للزمان:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وكأنما جاء دين الله لعرب الجزيرة العربية الذين عاشوا داخل حدودها، وخلال القرن السابع الميلادى.

لقد وصل الأمر فى هذا المنهج من التفكير إلى أن صار الحق يعرف بالرجال، وانتقلت القداسة لتغلف فهوم البشر، إلى أن انتهى الأمر بأحد الأصوليين أن يقول: « كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ »، ونسب القول لأبى حسن الكرخى من الأحناف.

لاحظ أيضًا كلمة «أصحابنا»، فلم يعد الحق مربوطًا بفهوم الرجال فحسب، بل إنه مربوط بفهوم الرجال من أصحابنا، وضاع النهى النبوى عن العصبية، ولم يعد أحد يذكر القول المنسوب للإمام على - كرم الله وجهه -: «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف رجاله».

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن عشر

المفهوم الاختزالى سمة للاستبداد الديني

آفة الاستبداد الكبرى هى الاختزال، فقد يختزل الوطن فى شخص المستبد، ويختزل التاريخ لترويج مزايا الطاغوت وطمس المعارضة.. وهكذا.. لم ينج الاستبداد الدينى من هذه الآفة، فقد اختزل الزمن فى قرون مفضلة، ثم اختزل كتاب الله فى آيات الأحكام، بعد أن أعمل النسخ داخل ثنايا القرآن لإلغاء نصوص بزعمه، ثم اختزلت الشريعة فى الفقه، ثم اختزل الفقه فى فقه العبادات مع تقزم فقه الواقع. يزيد الشيخ محمد الغزالى الأمر وضوحًا[1]: «إن المدارس الكبرى فى التاريخ الإسلامى الثقافى تلاشى أكثرها.

هناك الآن مدرستان:

أ) مدرسة المحدثين (رجال علم الحديث النبوى) واقتصرت مهمة هذه المدرسة وحصرت اهتمامها بعلوم السنة فقط، بعيدًا عن الرؤية الشمولية لقيم الإسلام وعطائه الحضارى.

ب) مدرسة الفقهاء: (رجال علم الفقه الإسلامى).

قد اقتصرت على فقه العبادات وما إليه، وجعلت منه إطارًا لنشاطها العقلى، و إذا تجاوزته فإلى معاملات الأسواق العادية. أما أن تنزل هذه المدرسة الإسلام على واقع الناس، وتعالج مشكلاتهم فى ضوء قيم القرآن الخالدة، وتعاليم السنة المبينة فأمر لا نرى له شيئًا يذكر، كما كان الفقهاء قديمًا يفعلون، فقد كتب «أبو يوسف» فى الخراج - أى فى الضريبة-، وكتب «محمد بن الحسن» فى العلاقات الدولية فى «السير الكبير». أما أن يكون الفقه اليوم مقطوع الصلة بالفقه الدستورى والفقه الإدارى، والفقه الدولى، فهذا موت.

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن الكريم. مرجع سابق.

وبعد الشاطبى أصبح منهج الأصولية (وهى مدرسة فيها دقة وضبط للنظر واستنباط الأحكام) علمًا مضحكًا، لأنه أصبح كالتالى:

التلخيص - الملخص - المتن - الشرح - الحاشية.. كأننا نطحن الماء..

لفظة الفقه بين دلالة القرآن واصطلاح الفقهاء

يقول الشيخ الغزالى - عليه رحمة الله -:

أ) الفقه فى القرآن:

يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٨].

ما معنى الفقه هنا؟ إنه فقه علوم الزراعة والإحياء، والفيزياء الفلكية وحركة الأجرام وعلوم الرياضيات. كذلك إذا اعتبرنا مجمل حياة الإنسان هى من «مستقر» وهو الرحم، إلى «مستودع»، وهو القبر، فالفقه هنا يشمل حياة الإنسان من أطوار الجنين إلى الموت، إنه فقه واسع المرادات..

ب) أما «الفقه» حسب الاصطلاح السائد بين المسلمين منذ قرون طويلة، فهو حسبما يقول الشيخ الغزالى:

أصبح الفقه يعنى حصرا: استنباط الأحكام التشريعية، والدوران فى فلك اجتهاد السابقين شرحًا واختصارًا، أما ما وراء ذلك (من آيات القرآن الكريم) فأصبح للتبرك، وانحسرت الرؤية القرآنية الشاملة.

وعلى الرغم من أنه إذا ما قيست آيات الأحكام فى القرآن بالآيات الأخرى نجدها أقل عددًا (٣٠٠ - ٥٠٠ آية)، يصبح القول بنقل منهج دراسة الأحكام ليصبح منهجًا لدراسة الأخلاق ودراسة التربية، فهذا غير صحيح، لأن كل منهج له ضوابط.

إنه بسبب من الظروف السياسية انفصل العلماء والمفكرون المسلمون عن الواقع ومتطلباته، أو لأى سبب آخر صرفوا جهدهم كله فى استنباط الحكم التشريعى من الآيات.. جعلوا من آيات الأحكام موضوع الدراسة الوحيد، ووضعوا لها أعدادًا متقاربة (٣٠٠ إلى ٥٠٠ آية)، أما ما وراء ذلك من آيات السنن والقوانين والشروط التى قد تكون أكثر أهمية وأولى بالنظر من حيث:

١ - البناء الحضارى للأمة.

٢ - شروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنسانى.

فلم يعيروها أدنى انتباه أو اعتبار. فكأن القرآن كله أصبح كتابًا لفقه آيات الأحكام.

ويخلص شيخنا الجليل إلى القول:

أن يكون الحكم التشريعى هو الأول والآخر، فأعتقد أنه منهج خاطئ فى النظر إلى القرآن والتعامل معه، على أهمية الفقه التشريعى وأهمية معرفة الحلال والحرام. انتهى.

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع عشر

شعارات الاستبداد الدينى لتقديس التراث

لقد نجح الاستبداد الدينى إلى حد بعيد فى اضفاء القداسة على مجهودات البشر من السلف، ونجح فى أن يزرع ذلك التقديس عميقًا داخل قلوب المؤمنين مثلما هو الحاصل مع كتاب صحيح البخارى.

إن الواحد من أهلنا فى مصر إذا حاسبته وأنبته على فعل ما يرى هو فيه أنه فعل لا يستحق كل ذلك التأنيب، فإنه يرد عليك فورًا بالقول: نحن لم نخطئ فى البخارى، وكان المتوقع أن يكون رده؛ نحن لم نخطئ فى كتاب الله أو آية من آياته، لكن القداسة انتقلت فى وعيه إلى البخارى.

صحيح البخارى مجهود فذ من رجل امتلك من القوة أن يتعامل مع عدد من الأحاديث تبلغ ٦٠٠,٠٠٠ حديث، وقيل ٧٥٠,٠٠٠ حديث، ليقرر أن الصحيح منها يقل عن الآلاف الثلاثة من الأحاديث، هذا إذا حذفت المكرر داخل الصحيح. ولكن هل يدفعنى ذلك إلى رفع شعار «البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله». وكيف نضع كتاب الله المنزل فى مقارنة مع عمل بشرى؟ و إذا كان كتاب الله إذا جازت المقارنة صحيحًا بنسبة ١٠٠ ٪ فما هو قدر صحة البخاري؟ ٩٩,٩ ٪ أم أقل؟ و إلى أى قدر؟

لا نجاة لعمل بشرى من الاختلاف: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، عندما أعلم من الدين بالضرورة أن الكتاب المنزل هو كلام الله لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأن هذا الكتاب قد أنزل على قلب رسول الله ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، وأن السيدة عائشة عندما سئلت عن

خلق رسول الله ﷺ أجابت: «كان خلقه القرآن» أقول: عندما أعلم ذلك وأؤمن به، يتأسس على ذلك أننى لا أستطيع إلا أن أقرر أنه لن يصدر عن الرسول ﷺ ما يخالف أو يتعارض أو يتناقض مع الكتاب الذى أنزل على قلبه، وصار طبعًا وخلقًا وصبغة له.

عندما يأتينى على سبيل المثال - حديث منسوب لحذيفة بن اليمان فى صحيح مسلم/ كتاب الإمارة، يقول فيه: إن النبى ﷺ قال: «يكون من بعدى أئمة لا يهتدون بهدايتى، ولا يستنون بسنتى، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس»، قال: قلت كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع». كيف أقبل هذا الحديث، أولا يكون فى النفس شىء منه؟ لأن الرسول ﷺ الأبى الكريم لا يرضى بقبول الظلم، ولا بإعطاء الاستبداد مبررًا عقائديًّا، مهما قدمنا من ذرائع عن فتنة الخروج على الحاكم، وعن أن دفع المضرة مقدم على جلب المنفعة.. يتناقض ذلك مع ما نزل على قلب رسولنا الكريم من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويتناقض كذلك مع وصف القرآن للذى آمنوا بأنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]. بل إنه يتناقض مع قول آخر للنبى ﷺ نفسه حين يقول: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو لتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا» [أبو داود: ٤٣٣٦ فى الملاحم]. والحديث الأخير ترى فيه نور النبوة وخلق الرسول، حيث يتفق مع الوصف القرآنى الذى يصف الاستبداد السياسى بأنه يؤدى إلى ضرب قلوب الناس بعضهم ببعض، لأن الاستبداد يؤدى إلى مبدإ «فرق تسد» وإلى تقسيم الناس إلى فئات وطوائف، حين قال - جل شأنه -: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤] كما أسلفنا فى مقال سابق.

إن كلام الله الذى أنزله على رسوله هو قطعى الثبوت ولا مبدل لكلماته، فى حين أن كل عمل بشرى هو ظنى الثبوت مهما علا شأنه ودقته، فكيف بالله أن يطلب منى أن أؤمن أن يحكم ظنى الثبوت على قطعى الثبوت: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، هذا هو ما نزل على قلب الرسول الأمين، مهما قدم إلينا من ذرائع ومسببات.

ولست فى هذا المنهج من المبتدعين -حاشا لله - لكننى هنا أنهج على نهج السيدة عائشة أم المؤمنين، والتى سبقت الجميع فى منهج محاكمة كل شىء حتى حديث النبى بحكم كتاب الله، فكتاب الله يحكم على كل شىء، ولا شىء يحكم على كتاب الله، إلا كتاب الله ذاته. تعقيبًا على آية فى سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٨ - ١٣]، سأل صحابى اسمه مسروق السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا أماه: هل رأى محمد ربه؟ قالت: لقد قف شعر رأسى مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب، من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١][(١) (٢)].

ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤]. ومن حدثك أن محمدًا كتم أمرًا فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، ثم عقبت على رؤية الرسول ﷺ لربه قائلة: «لكنه رأى جبريل فى صورته مرتين». وعندما بلغها من قال: إن الرسول ﷺ وقف ينادى على قتلى المشركين فى موقعة بدر بأسمائهم، وأنه قال لمن سأله فى هذا الموقف: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال ﷺ: «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وأنكرت السيدة عائشة عبارة: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، مستدلة بالآية الشريفة: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢]، وصححت الرواية: ما أنتم بأعلم لما أقول منهم. انظر إلى قدر التعديلات التى أدخلتها أمنا عائشة على الروايات التى سمعت بها، وكان ذلك قريب عهد برسول الله ﷺ، فما بالكم بما كتب بعده بثلاثة قرون.

بل إن الأمر يمضى إلى ما هو أكثر من ذلك، فهناك مدرسة فقهية ترى أنه ليس على

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث - الغزالى - الشروق صـ ٢٢- ٢٤.

(٢) تيسير صحيح البخارى مرجع سابق حديث رقم ٤٦١٢- ٧٣٨٠.

البشر ضرورة العثور - فى كل حالة - على نتيجة صحيحة تمامًا من الناحية الشرعية، إنما على الناس واجب الاجتهاد وبذل الوسع و إعمال العقل للوصول إلى نتيجة ما، وتصبح هذه النتيجة عند غلبة الظن وموازنة البراهين هى «الصواب» بالنسبة لصاحب الحالة الذى اجتهد وفكر ووازن، وأطلق عليهم اسم المصوبة. يفسر أحد رجال هذه المدرسة وهو الإمام الجوينى ذلك بقوله: «الأمر كما لو كان الله قد قال للبشر إن أوامره لعباده تتوافق مع رجحان فكرهم. إذن فكل من يعتقدون بشكل راجح أنه فرض عليهم أن يفعلوا شيئًا يكون تصرفهم فيه أمرًا من الله - تعالى -، كل مجتهد فيها مصيب. و إن حكم الله فيها لا يكون واحدًا، بل هو تابع لظن المجتهد. فحكم الله فى حق كل مجتهد ما أدى إليه اجتهاده، وغلب على ظنه» وهو قول القاضى أبي بكر وأبي الهذيل والجبائى وابنه»(*).

قد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك، فسوف تتحول الشريعة إلى مسألة ذاتية فردية بعدد أفراد الأمة. وأقول: لا يعنى هذا الأمر أنه فى قدرة كل مخلوق القيام بذلك، ولا يعنى كذلك إهمال السؤال لأهل الاختصاص لقوله - تعالى -: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فلكل أمر أهله ورجاله، ولكل نفس وسعها ومواهبها، لكن ما نقوله: إن المسئولية الفردية بما وهب الله الإنسان الفرد من عقل ومواهب، وبما أعطاه من وسع وقدرة، وبما أوجب عليه من إنفاذ إرادة الاختيار بن بدائل، أقول: هذه المسئولية الفردية لا تنكمش أو تختفى بالكلية، اعتمادًا على الآخرين، ولا تقبل الأعذار عند عدم القيام بهذه المسئولية الفردية، لذلك يقول الله فى كتابه العزيز: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وستكون المساءلة على ما توصلت إليه بعد إعمال عقلك من رجحان للبرهان: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، كما يعيب القرآن على من لا يعمل عقله ويخوض فى الأمور بدون اجتهاد أو تفكير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]. تتضح المسئولية الفردية بكل عنفوانها، عندما يحيل الحق - تبارك وتعالى - إليها الأمر كله عندما يكون الموقف موقفًا يحتم اتخاذ قرار

(*) [الإسلام وتحدى الديمقراطية - د. خالد ابن الفضل مرجع سابق - صـ ٢٤ - ٢٥]. [الجوينى كتاب الاجتهاد، ٥٠ -٥١ - ٦١].

مصيرى يتوقف عليه مآل حياة الإنسان، و يتحدد عنده أى سبيل سوف يتخذ، و إلى أى اتجاه سوف يتوجه، هنا ينبغى أن يصدر القرار من الإنسان الفرد وحده، أو بالنقاش مع شخص آخر واحد لا غير يكون موضع ثقته: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [سبأ: ٤٦]. هنا لا مجال لأن تقول لقد اتبعت فلانًا، أو مشيت وراء فلان، أو كانت فتوى من فتاوى هذا أو ذاك من الناس. لقد أشهدنا الله على أنفسنا، وشهد عليها معنا، وحذرنا من أن ندفع عن أنفسنا المسئولية الذاتية يوم نقوم بين يديه بداع من الغفلة، أو بإلقاء اللوم على الآخرين من أهلنا وقومنا الذين كانوا من قبلنا، و يومها وبكل أسف سوف ندمغهم بالباطل حتى ننجو من تخلينا عن المسئولية الذاتية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

هل لا يعلم علماؤنا الأفاضل بذلك كله؟ أقول: إنهم يعلمون بل و يعرفون، إذن لماذا لا يتحركون؟ أقول: إما أنهم لا يريدون، و إما أنهم لا يستطيعون. وسوف أسوق البرهان على زعمى هذا فى الفصل القادم بإذن الله، والله الموفق.

❋ ❋ ❋

الفصل العشرون

أسماء الله الحسنى

أ) هل تدرى كيف عرف المسلمون أسماء الله الحسنى؟

أنا أجزم بأن معظمنا يعرف أنها تسعة وتسعون اسمًا، وأجزم بأن الكثير من المسلمين يحفظونها أو يحفظون معظمها عن ظهر قلب. كما أجزم بأن عددًا غير قليل يعرف الحديث المروى عن أبي هريرة والذى يقول: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة». لكن ليس بالحديث أية إشارة عن هذه الأسماء، ولم يثبت عن النبى ﷺ تعيين الأسماء الحسنى التسعة والتسعين أو سردها فى نص، ما حدث أن بعض رواه الحديث جمع هذه الأسماء باجتهادهم، وكان أشهرهم «الوليد بن مسلم» مولى ابن أمية الذى استطاع أن يجمع ثمانية وتسعين اسمًا بالإضافة إلى لفظ الجلالة. وعندما كان الوليد يحدث الناس بحديث أبي هريرة، كان يتبعه بذكر هذه الأسماء التى اجتهد فى استنباطها حتى ظن الكثير أنها هى الأخرى نص من كلام الرسول، فانتشرت بين المسلمين وحفظوها.

ب) هل الأسماء الحسنى المتداولة بيننا صحيحة؟ أو بمعنى أدق هل هى من أسماء الله التى سمى - جل وعلا - بها نفسه؟ أو هل حتى وردت فى صحيح السنة؟

لقد أجاب عن هذا التساؤل أحد الباحثين الفضلاء، وهو د. محمود عبد الرازق الرضوانى الأستاذ بكلية الشريعة والقانون، فى بحث يتعلق بإحصاء الأسماء الحسنى، اعتمد فيه على فحص جميع النصوص القرآنية وأيضًا النبوية الصحيحة والثابتة، مستعينا بتقنيات الحاسب الآلى، وبالموسوعات الإلكترونية المتعلقة بمجال بحثه. وقبل أن أخبركم بما توصل إليه هذا البحث الذى أقره مجمع البحوث الإسلامية، وصرح بأنه لم يجد فيه ما يخالف العقيدة أو يعارض ثوابت الدين، تعالوا إلى بعض ضوابط الاجتهاد المتعلقة بهذا الشأن التى

قدمها الباحث، وكذلك القيود الحاكمة لجهد المسلم للتعرف على كل اسم من كتاب الله، وأوجزها فى خمسة شروط أساسية:

١- ثبوت النص

ما دام لم يصح عن النبى حديث يسرد الأسماء الحسنى، فلابد لإحصائها من وجود الاسم نصًا فى القرآن أو صحيح السنة، وهذا الشرط مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالألف واللام للعهد، والإحصاء لا يكون إلا لشىء معهود، أى بما نص عليه القرآن والسنة.

٢ـ عَلَمية الاسم

أى يرد الاسم فى النص مرادًا به العَلَمية (علمًا على المسمى)، ومتميزًا بعلامات الاسمية المعروفة فى اللغة، كأن:

أ) يدخل على الاسم حرف الجر: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ب) أن يرد الاسم منونًا: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧].

ج) أن تدخل عليه «ياء» النداء: مثلما قال الرسول ﷺ: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث.

د) أن يكون معرفًا بالألف واللام: مثل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

هـ) أن يكون المعنى مسندًا إليه محمولًا عليه: مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

٣- عدم التقييد:

أى أن يرد الاسم مطلقًا دون تقييد ظاهر أو إضافة مقترنة، بحيث يفيد المدح والثناء بنفسه، لأن الإضافة والتقييد يحدان من إطلاق الحسن والكمال، فى حين ذكر الله أسماءه بطلاقة الإحسان فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يعنى ذلك أنه لا يجوز أن نجعل (البالغ) ضمن أسماء الله الحسنى لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] ولا يصح إطلاق هذا الاسم

فى حق الله بل يذكر على التقييد، وكذلك أن نجعل (العدو) اسما لله جل شأنه لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٤- دلالة الاسم على الوصف

بأن يكون اسمًا على مسمى، لأن القرآن بين أن أسماء الله أعلام وأوصاف ودلل على علميتها بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أى أنه لا فرق بين الرحمن أو الرحيم أو القدوس، لأن كلها تدل على مسمى واحد.

٥- دلالة الوصف على الكمال المطلق

فلا يكون المعنى عند تجرد اللفظ منقسمًا إلى كمال أو نقص، أو يحتمل شيئًا يحد من إطلاق الكمال والحسن، بل يجب أن يكون الوصف فى غاية الكمال والجمال، وهذا الشرط مأخوذ من قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فليس من أسماء الله - جل شأنه -: الماكر والخادع والمضل، لأن ذلك يكون كمالًا فى موضع ونقصًا فى موضع آخر..

ما الذى أظهره البحث وأماط عنه اللثام؟

أظهر البحث أننا أطلقنا على الله أسماء من مثل: الخافض والمعز والمذل، والعدل، والجليل، والضار والنافع، وهذه كلها ليست من أسماء الله الحسنى، لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يسم بها نفسه، كما أنها لم ترد فى صحيح السنة. إن الذى ورد هو «الفعل» فقط كما جاء فى صحيح مسلم. عن النبى ﷺ: أنه قال: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه». هنا لا يجوز لنا أن نشتق لله من كل «فعل» أسماء ولم يخولنا الله فى ذلك أبدًا، وإنما أمرنا بإحصاء أسمائه وجمعها وحفظها والدعاء بها. لقد قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ ولم يقل إنه له الأوصاف أو الأفعال، وشتان بين الأسماء وبين الأوصاف، فالوصف لا يقوم بنفسه كالحكمة والقدرة، وإنما يقوم بموصوفه، ويقوم الفعل بفاعله، بينما تدل الأسماء على المسمى الذى اتصف بها كالرحمن والعزيز والعليم.

كما نجد أن «الوليد بن مسلم» قد اشتق اسمى المعز والمذل من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ

﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهما مستمدان من الفعلين (تعز، وتذل)، فى حين أنه كان ينبغى وفقًا لهذه القاعدة أن يسمى الله بالاسمين «المؤتى»، و«النازع» اشتقاقًا من الفعلين «تؤتى وتنزع».
كذلك «العدل» ليس من أسمائه - سبحانه وتعالى -، فهو لم يرد فى القرآن اسمًا أو حتى فعلًا، وإنما جاء أمرًا من الله فى قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، بينما لم يرد [الضار] لا اسمًا ولا وصفًا، ولا فعلًا فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، ولعله جاء اجتهادًا من المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ما هى الأسماء المشهورة التى ليست من الأسماء الحسنى؟

هى تسعة وعشرون اسمًا، لم تتوافق مع شروط الإحصاء، منها:

أ) اثنان وعشرون ليست من الأسماء الحسنى، ولكنها أفعال وأوصاف لا يصح الاجتهاد فى الاشتقاق منها، وهى:

الخافض، المعز، المذل، العدل، الجليل، الباعث، المحصى، المبدئ، المعيد، المميت، الواجد، الماجد، الوالى، ذو الجلال والإكرام، المقسط، المغنى، المانع، الضار، النافع، الباقى، الرشيد، الصبور.

ب) سبعة أسماء مقيدة بالإضافة لابد من ذكرها مضافة كما ورد نصها فى القرآن الكريم وهي: الرافع، المحيى، المنتقم، الجامع، النور، الهادى، البديع.

إلى ماذا انتهى البحث فى أسماء الله الحسنى؟

انتهى البحث إلى أن الأسماء الحسنى هى تسعة وتسعون اسمًا، موجود منها ثمانية وسبعون اسمًا فى القرآن، وواحد وعشرون اسمًا فى السنة النبوية. وإليكم بيانها: (انظر الملحق).

السؤال الأول: هل كان علماؤنا الأفاضل لا يعلمون ذلك ولا يعرفونه؟ الإجابة بكل حزم: إنهم كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه، فهم يقولون: إنها أسماء توقيفية، والمقصود بتوقيفية أى واجب أن يقف الإنسان على ما جاء فى الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء

الله، دون زيادة أو نقصان. وقال الإمام النووى: هي أسماء توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح.

وقالوا: إن تسمية رب العزة بما لم يسم به نفسه، قول على الله بغير علم، وهو أمر حرمه الله، وإنه لابد فى كل اسم من دليل نصى صحيح يذكر فيه الاسم بلفظه.

كذلك فقد نبه الإمام الترمذى على الأسماء التى كنا نظن إلى يومنا هذا أنها أسماء الله الحسنى، والتى استنبطها أشهر من قاموا بهذا الاجتهاد، وهو «الوليد بن مسلم»، نبه الترمذى على غرابة هذه الأسماء (أى ضعفها وانعدام ثبوتها مع الحديث). يقفز إلى الذهن السؤال الآتى: إذا كان علماؤنا يعلمون ويعرفون فلماذا يسكتون ولا يتحركون؟

أقول: إنهم إما لا يريدون أو لا يرغبون لأسباب لديهم، وإما أنهم لا يستطيعون!! وإذا افترضنا النية الحسنة وهو ما لا أجرؤ على إنكاره يصبح الأمر وصاية على خلق الله، خوفًا عليهم من الفتنة، وكأنهم يدافعون عن الذين آمنوا، فى حين أن القرآن يقول: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨]، وكأنهم مرة أخرى يدخلون أنفسهم فى مجال اختص الله به نفسه. نحن نعرف أن الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]. من أجل إعلاء كلمة الله، لكن ذلك يعنى أن تعلن عن الحق ولا تحجبه حتى بذريعة الحفاظ على إيمان العوام، ثم تدافع عنه. يجب أن يعلم علماء الأمة أن الله - جل شأنه - لا ينهزم، ولا خوف عليه ولا على دينه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [البقرة: ٣٢]. إن أس الاستبداد، وأصل البلاء، هو فى الوصاية لأنها تفرض الهيمنة والطغيان، انتهاء بالاستبداد، هل تدرون لماذا أقول إنهم لا يريدون التصحيح أو لا يقدرون عليه؟

إن ذلك البحث عن الأسماء الحسنى نشرته جريدة الأهرام فى ملحق الجمعة بتاريخ ٢٠٠٥/١١/١٨ بعد أن حاز على إقرار مجمع البحوث الإسلامية. وكانت الأستاذة/ علا مصطفى عامر الصحفية بالأهرام والتى أوردت هذا البحث، قد كتبت فى مقدمة أو ترويسة الصفحة، ما ينم عن ثاقب فكرها، ووضوح رؤيتها موجهة القول لعلماء مجمع البحوث الإسلامية: بما نصه: «بالمناسبة نتائج هذا البحث أقرها مجمع البحوث الإسلامية،

ولم يجد فيها ما يخالف العقيدة أو يعارض ثوابت الدين.. ونحن نقول: الإقرار وحده لا يكفى، والحياد غير مطلوب، والتعديل ضرورى» إنها تستشعر المصير المحتوم والمتوقع لكل فكر جديد وأصيل، وهو الإقرار ثم الصمت المطبق والركود المقيم.

لقد صاغوا وجدان المسلمين مرتبطًا بهذه الأسماء ومن بينها الأسماء غير الصحيحة، ودام التأسيس لها لما يزيد عن القرون العشرة من الزمان، يردد المسلمون هذه الأسماء فى مجالسهم وفى أفراحهم ويعلقونها على حوائط منازلهم، وتكتبها النساء فى حليهم لتعلقها فى جيدهن، ويحفظونها عن ظهر قلب، ويترنم بها المنشدون فى أذكارهم فكيف يجدون الجرأة على تعديلها، وما هو السبيل إلى ذلك؟. فلا يبقى إلا أن يترك خطأ السلف الذى يوقرونه إلى حد التقديس ويظل المسلمون يسألون الله بأسماء سميناها نحن وأباؤنا ما أنزل الله بها من سلطان وليس لنا إلى مرد من سبيل.

نحن الآن على مشارف عام ٢٠١٥ من الميلاد، فهل يتحركون؟ إننى أدعو الله أن تأتى الحركة من ميدان الأزهر، وإلا سوف تأتى من ميدان التحرير، وعندها نقول جميعًا: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وهو نداء استغاثة فى وقت ليس هو بوقت الخلاص الفردى.

يتعبد المسلمون الله بأسماء ليست من أسمائه الحسنى، ويعلم من يدعون حراسة العقيدة بذلك ولا يتحركون، ولا يصححون أخطاء السلف، ثم يتلون كتاب الله الذى يقول:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

واللحد هو الميل عن الاستقامة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

الفصل الواحد والعشرون

الاستبداد الدينى والكيل بمكيالين

أولًا: عندما يصدر رأى فى أمر من أمور الدين من أحد من عموم المسلمين:

على الرغم من أن كتاب الله المنزل لا يمل من تحريض الناس، وكذلك تحريض أهل الإيمان على إعمال عقولهم للوصول إلى حقائق الإيمان. كذلك فإن كتاب الله المنزل يرفض الإكراه، ويرفض دفع الناس إلى الإيمان عن طريق إلغاء عقولهم حتى عن طريق المعجزات، بل إنه يحرص على الإعلان عن رفض الله لإيمان الأعناق الخاضعة. جاءت سنة النبى ﷺ مؤكدة لذلك المعنى حيث حضت الناس على التفكير والاجتهاد إلى الحد الذى قال معه النبى ﷺ:

«من أجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران....» أو كما قال.

ولا أحسب أن هناك دين سماوى أو فكر وضعي أو نظام إنسانى يعطي الناس الثواب والأجر على الخطأ بعد الاجتهاد إلا فى الرسالة المحمدية الخاتمة.

لكن الاستبداد الديني ينتفض بشدة إذا جابه رأيا يدلى به أحد المسلمين خاصة إذا جانب الصواب هذا الرأي ويكيل الاتهامات، وتنطلق النعوت السيئة لتنعت هذا المجترئ، وتشن حملة شعواء في حق المسلم المسكين. من مظاهر هذه الحملات تدبيج المقالات التي تحمل السباب والاتهامات من قبيل: «المتطاولون على ثوابت الدين يشجعون التطرف ويصرفون الأنظار عن المشروعات الكبري»(*).

(*) جريدة الأهرام ٢٠١٤/٨/١٥ ص ٤٢.

وكذلك: «المخربون الجدد وثوابت الدين»[*]....

ونلاحظ أن تقديس التراث كما أسلفنا هو أحد الدوافع وراء هذا الهجوم رغم محاولات إخفاء ذلك. فقد أتى في التحقيق الذي يحمل العنوان الأول إحدى الإجابات كالتالى: «نحن لا نقول بأنه كتاب مقدس (يقصد البخاري)... ثم يعقب «وإنما يفترق الصحيحان (البخاري ومسلم) وغيرهما من الكتب فى كون ما فيهما صحيح لا يحتاج إلى النظر فيه، بل يجب العمل به مطلقًا»... بعد أن ألغى القداسة عن عمل تراثي، عاد وطلب إلغاء العقل والتفكير وعدم الاحتياج للنظر فيه، وأوجب العمل بهما على الإطلاق فألغى أوامر كتاب الله ورسوله بأعمال العقل والاجتهاد ثم أضفى القداسة على التراث حيث أن الإطلاق من صفات المقدس وليس من صفات اجتهاد الإنسان.

نلاحظ كذلك ورود مصطلحي «ثوابت الدين» وكذلك «المعلوم من الدين بالضرورة»، ثم لا يأتي التعريف المحدد لهما حتى يتسعا لدفع من لا يعجبهم بالارتداد عن الدين.

ثانيا: عندما ترفع هذه المصطلحات في وجه أهل المؤسسة الدينية:

عندما أتت تعديلات القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ لشئون الأزهر الشريف[**]، لاقى البندين الرابع والخامس من هذه التعديلات، حيث يتحدثان عن «كل فعل يخل بشرف عضو هيئة التدريس ويتعارض مع حقائق الإسلام الثابتة، أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو يمس نزاهته»، إعتراض العلماء الأزهريين. لماذا إعترض الكثير من علماء الأزهر، وثارت مخاوف البعض منهم؟ الحجة هنا أن هذين البندين فيهما تضييق لباب الاجتهاد، وتخويف للمفتين والعلماء المجددين. فقال أحدهم أن عبارات «المعلوم من الدين بالضرورة»، «وثوابت الدين» هى عبارات «مرسلة، وكل جملة فيها قابلة للتوسعة. ومن حق المجتهد أن يحمل اللفظ على الحقيقة والمجاز.. فهو يمكن أن يضيق الاجتهاد ويخوف المجتهدين المجددين..» وقال عالم آخر: «إن هذه العبارات مطاطة حمالة أوجه يمكن أن

(*) جريدة الأهرام. مقالة د. عباس شومان

(**) جريدة الأهرام ٢٠١٤/٩/٢٥ ص ٢٠ ـ فكر دينى.

تتخذ سياطًا لأعضاء هيئة التدريس». ثم أرجو أن تدقق فيما قاله العالم الأزهرى بعد ذلك، حيث استطرد: «لا يوجد ما يعد من ثوابت الدين، فهناك ما لا يقل عن ٩٥٪ من أمور الشريعة فيها خلاف بين العلماء». ثم يكمل قائلا: «بالتالي أى أحد يخوض في مثل هذا الجانب ينتظره الويل والثبور. ومن الأمثلة على ذلك فتوى إرضاع الكبير التى قال بها أحد أساتذة الأزهر. ورغم أنها موجودة في كتب الفقه، إلا أن هذا لم يعف العالم من العقوبة».

أنظر عندما اقتربت منهم العبارات التى يجلدون بها ظهر الناس من قرون عديدة، أصبحت عبارات مرسلة، وحمالة أوجه، بل إختفى على الفور وجود ما يسمى بثوابت الدين حيث أن الخلاف يلحق، بما لا يقل عن ٩٥٪ من أمور الشريعة. يعرفون ما ينتظرهم حين يطبق عليهم ما يطبقونه على الناس إذا خالفوهم.

يكيل الاستبداد الديني بمكيالين، وظهر ذلك عندما اقترب الأمر من رجاله. فيأتي أحد كبار علمائه ليقول - على الرغم مما قاله زملاؤه سابقًا - «إن ثواب الدين والمعلوم من الدين بالضرورة حددتها النصوص الشرعية من الكتاب والسنة و إجماع سلفنا الصالح، وكل عالم تعمق في دراسة علوم الشرع يعرفها»، ثم لا يوضح أو يحدد تعريفا للمصطلحين لكنه يقول: «أن هناك ظن خاطئ يجب تصحيحه وهو أن كل من تعلم في الأزهر وحمل شهادة منه مؤهل للإفتاء. فكثير ممن تخرج في الأزهر وحمل شهادة عليا حتى الدكتوراه.. لا علاقة له بالإفتاء[*]. ولا تعليق فهم يجعلون الحليم منا حيران.

نسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا والأخرة!

❋ ❋ ❋

(*) جريدة الأهرام - ٢٠١٤/٩/٢٥. ص ٢٠ فكر دينى.

الباب الثالث

استبداد الثروة



الفصل الثانى والعشرون

تزاوج المال مع السلطة

أولًا: مكانة المال فى الإسلام:

حيث إن دين الإسلام هو دين الحياة بكل حقائقها الموضوعية، أى أنه دين الفطرة، الذى يؤدى إلى النجاة فى الآخرة، فلا عجب أن يكون للمال موقعه وموضعه اللذان يحظيان بالأهمية داخل النظام الإسلامى. يتحدث عن ذلك كتاب الله بالقول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ونظرًا لهذه المكانة التى يحظى بها المال فى حياة خلق الله، جاء الكتاب المنزل ببعض الأصول والقواعد المتعلقة به، وفيها:

أ) ملكية ثروات الأرض هى ملكية عامة لكل الناس بلا استثناء:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٩].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ب) أن المال مال الله والبشر مستخلفون فيه ليس إلّا:

إن ملكية الإنسان للمال ليست ملكية رقبة فى التصور القرآنى بل هى مجرد استخلاف ليرى الله منه كيف يفعل بالثروة: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

لذلك يقول الكتاب الكريم حاضًا أصحاب الثروة على العطاء لمن لا يملكون ما يكفى من المال:

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

ج) نصيب الفقراء حق وليس منحة من صاحب الثروة:

لكل فرد من أفراد المجتمع حق في ثروات هذا المجتمع، بل في ثروات الأرض جميعًا؛ تحدث كتاب الله المنزل عن هذا الحق بشكل مفتوح مرة: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وبشكل مقيد مرة أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

د) الحض الشديد على إنفاق الثروة لتوفير الحاجات الأساسية لغير القادرين:

ذهب الكتاب المنزل إلى اعتبار أن من لا يناضل من أجل وصول نصيب من الثروة لغير القادرين هو من الذين يكذبون بالدين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

دعامة الإيمان الحق وأساسه المتين هو عند الله الكفاح والعمل على توفير الحاجات الأساسية والكفائية للمحتاجين وغير القادرين.

هـ) تأسيسًا على ما سبق توعد كتاب الله الذين يكنزون الثروات، ويمتنعون عن الاستثمار، وعن الإنفاق على أقوامهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وفي قوله: «بشرهم بالعذاب» نوع من التبكيت والاستهزاء، فالبشرى تأتي بالخير.

و) التوزيع العادل لثروات المجتمع لتحقيق العدالة الاجتماعية:

ينبغي من وجهة نظر الكتاب المنزل ألّا تصبح الثروات حكرًا على مجموعة صغيرة من أفراد المجتمع، بحيث يتداولون ثروة المجتمع في دائرة مغلقة عليهم، وفيما بينهم، ليزدادوا ثراء على ثرائهم، وتظل الغالبية الساحقة من أفراد المجتمع غارقة في مستنقع الفقر المدقع والعوز والحاجة: يقول الكتاب المنزل: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، التوزيع العادل للثروة مطلوب حتى لا يصبح المال دولة (متداولًا) بين عدد محدود من الأغنياء.

لذلك يمثل أصحاب الثروات الذين يؤدون حقوق قومهم عليهم فى ثرواتهم، القاطرة الحقيقية التى تأخذ بيد مجتمعاتهم على طريق التقدم والرخاء والكفاية والاستقرار، إنهم المؤمنون حقًا. أصحاب الثروات الذين يؤدون حقوق عيال الله فى أموالهم، كأنهم هم يد الله الممدودة لخلقه، وهم الذين يمر عطاء الله لخلقه من خلالهم، فقدرهم عند الله كبير، وأجرهم غير محدود: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢] تعنى كلمة «غنى فلان»، أي: كثر ماله، فهو غنى، وتعنى «غنى عن الشيء»، أي: لم يحتج إليه. لذلك فالغنى هو الذى لديه من المال ما يجعله ليس فى حاجة لشيء أو حاجة لأحد، فلديه ما يكفيه و يزيد. وتعنى كلمة «استغنى»، أنه: طلب الغنى، مثلما نقول: «استأذن»، أي: طلب الإذن، فالاستغناء هو طلب الغنى، أى طلب المال الوفير، أو أنه طلب ما لا يجعله فى حاجة لشيء أو لآخر. يعطى الاستغناء لصاحب الثروة نوعًا من النفوذ والجاه لعدم احتياجه للآخرين، فى حين يحتاج الآخرون إليه، وهناك فئة من الأغنياء يدير هذا النفوذ رؤوسهم فيسعون لمزيد من النفوذ والجاه.

تنبئنا حقائق التاريخ أن النفوذ والجاه الآتى من الثراء والغنى لا يعادل فى العادة النفوذ الناتج عن السلطة السياسية، لذلك فعادة ما ترى من خلال التجارب الإنسانية محاولات اقتراب فئة من أصحاب الثروة وتقربهم من أصحاب السلطة السياسية عملًا على أن يزيد هؤلاء الأغنياء من نفوذهم وسلطانهم. ويظهر ذلك واضحًا فى المجتمعات الإنسانية تحت حكم الاستبداد، خاصة من تكالب أصحاب الثروة على أصحاب السلطة والنفوذ السياسى، حتى وإن كانوا أقل منهم ثراء، وترى ذلك بوضوح من تنامى علاقات أهل الثراء حتى مع موظفى الدولة من مثل الوزراء وكبار الموظفين ورجال الأمن، ورجال ما يسمى بالجهات السيادية وما إلى ذلك. ليس تقرب الأثرياء من هؤلاء من قبل المودة والعلاقات الإنسانية، بل هو عمل على زيادة النفوذ من أجل تسهيل زيادة الثراء وتقليل ما يعوق المسيرة الاكتنازية. تجد كذلك أهل الثراء الذين يوظفون أهل السلطة السابقة، إما للاستفادة من اتصالاتهم السابقة فى تيسير وتسيير المصالح، وإما لإرضاء بعض عقد الدونية لدى الأثرياء ضد أهل

السلطة السابقين، والتمتع بإصدار الأوامر لهم، والشعور بالتفوق لأن أهل السلطة أصبحوا فى نهاية الأمر تحت إمرتهم.

أود أن ألفت النظر إلى أننى لا أتحدث هنا عن مجمل فئة أصحاب الثراء، حتى لا يتبادر التعميم إلى ذهن أى أحد، فإن التعميم هو واحد من أشد الأعداء الألداء لكل باحث عن الموضوعية، ولكل من ينشد تحرى الحقيقية قدر المستطاع.

إذن تعطى الثروة والمال الوفير لصاحبها الغنى بالمعنى المباشر، وهو امتلاك المال الكثير، وتعطيه أيضًا الغنى بمعنى عدم الاحتياج إلى أحد من الآخرين، وتعطيه ثالثًا السيطرة على بعض أهل السلطة، ما يجعله مستغنيًا كما نقول. وعندما يتطلع هذا النوع من الأثرياء إلى مزيد من الاستغناء، وزيادة مساحة الجاه والنفوذ وعدم الاحتياج، فإنه يبدأ فى مغازلة السلطة السياسية، علاوة على السلطة الدينية، اللتين تملكان ما لا يملكه من النفوذ والجاه والسلطان.

إذا نجح صاحب الثروة والمال فى تقربه من السلطان ورجل الدين، وضم النفوذ والجاه المتوفر للسلطة السياسية، علاوة على السلطة الدينية، إلى النفوذ الناشئ عن سلطة الثروة، حدث ما نسميه تزاوج السلطة مع رأس المال، ولا ينجب مثل هذا النوع من الزواج والاقتران إلا ذرية طاغوتية، ذات نفوذ وسلطان غير محدود، وغير مسئول.

لقد تحدث كتاب الله عن مثل هذا النوع، وهذه الفئة من أصحاب الثراء الواسع، والمال الوفير، والذين نجح مسعاهم فى أن يقرنوا ما بين نفوذهم المالى، وبين نفوذ السلطة السياسية وكذلك الدينية، أقول: تحدث كتاب الله عن هذه الشخصية التى تحمل اسم «قارون»، وتوحى التسمية هنا كما لو أنه «قرن» بين النفوذ المالى، والنفوذ السياسى والدينى، وزاوج بينهم، فأصبح «قارون».

إن القارون هو الثرى الذى حاز على نصيب من السلطة التى قد لا تتوافر لإنسان فى أى نظام، وهو الآن الذى يملك من الثراء والنفوذ والجاه والسلطة، ما لا يحده حدود، ولا توقفه حواجز ولا رقابه، ولا تحجزه سدود أو عوائق، ولا تقيده أى قيود، إنه الآن قوة كاسحة لا قبل لأحد بها، فكيف يكون فعله وسلوكه وطبيعته النفسية، هذا ما سنتحدث عنه فى الفصل الأخير.

الفصل الثالث والعشرون

الطغيان القارونى

عندما ينجح صاحب الثروة فى أن يقرن بين النفوذ والسلطان المتأتى له من ثروته الطائلة، وبين النفوذ والسلطان السياسى والدينى، يصبح «قارون» ويتسع سلطانه ونفوذه إلى ما لا يحده حدود. ما معنى أن تكون ذا سلطة ونفوذ غير محدودين؟ لا يعنى ذلك إلا «الاستغناء» بمعناه الحرفى، أى عدم الاحتياج لأى آخر أو لأى شيء. يا ترى ماذا يتولد عن هذا الاستغناء الشديد؟ يقول الكتاب المنزل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، أى أن الطغيان هو النتيجة الحتمية والأولى التى تتولد عن الاستغناء، وقلنا: إن الطغيان من فعل «طغى» التى تعنى لغة: «مجاوزة الحد المعقول والمقبول»، وهى تعبر عادة، حتى فى السياق القرآنى، عن الماء إذا فاض وتجاوز الحد فى الزيادة، وعلا واجتاح اليابسة مدمرًا فى طريقه كل ما يعترضه من جسور وحواجز وسدود، وكاسحًا لكل مظاهر الحياة، رغم أن الماء هو الحياة، ومحطمًا لكل منتجات المدنية والحضارة، حيث قال كتاب الله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، فى سياق ذكره لطوفان نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

إن المستغنى - ما لم تحده موانع أخلاقية وقانونية واجتماعية - يطغى بالضرورة، ويمضى مثله مثل الماء الذى يطغى، غير عابئ بأى موانع أو حواجز أو سدود أو جسور، سواء أكانت قانونية أو أخلاقية، ولا يسمح لأى أحد أو شيء أن يوقفه أو يصده عن الوصول إلى ما يريد.

إذا كا ن الاستغناء فى جنب الله، فهو يعنى أنه وحده - سبحانه وتعالى - الذى لا يحتاج إلى أحد بإطلاق، لأنه المكتفى بذاته بإطلاق، وهو وحده المستحق لذلك بإطلاق. إذا صرفنا ذلك ناحية الإنسان، فإن افتراض الاستغناء المطلق لا يعنى - فى هذه الحالة - إلا أن يتولد

لدى هذا الإنسان نوع من «النقص فى الإحساس بالمخلوقية»، وليس ذلك إلا عنادًا ومكابرة، ومحاولة فاشلة لتجاوز حقيقة موضوعية، وسنة كونية لم تعرف البشرية تكذيبًا لها، لذلك ينتهى به الأمر أيضًا إلى نوع من إنكار الله بوصفه الخالق. يأخذ الإحساس بالتعالى على المخلوقية القارون إلى فقد الشعور بحتمية الموت، و إلى أن يقترب توهم الخلود داخل نفس القارون من مرتبة الحقيقة الواقعة، بحيث ينطبق عليه قول الكتاب المنزل: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

أصبح القارون لا يقبل الإجابة «بلا» على أى من طلباته، ويكون الذبح من الوريد للوريد لمن يتجاسر على أن يقول له: لا.

و إذا كانت الصورة الكامنة لغة خلف «الطغيان» هى صورة الماء الهادر المتجاوز للحد، نجد أن الصورة الكامنة لغة خلف «الاستغناء» هى أيضا الثروة الهائلة التى لا حد لها. و إذا اعتبرنا الاستغناء كما أسلفنا هو الخروج من حد المخلوقية، واعتقاد الخلود، فإن ذلك يظهر بجلاء فى موقف قارون، عندما تحدث إليه قومه مذكرين له بأن ماله هو هبة من الله له، و إحسان وصل إليه منه جَلَّ وَعَلَا، عليه أن يراعى ربه ويراعيهم فى هذا المال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨]. يؤدى الاستغناء إلى الطغيان، الذى يؤدى إلى الفساد فى الأرض. سواء كان الطغيان سياسيًا أو دينيًا أو ماليًا، فإن الفساد فى الأرض هو النتيجة المحتومة، كذلك فإن رفض الطاغية لأى نصيحة أو قول هو أيضًا رد الفعل الطبيعى الناتج عن استغنائه. لذلك يرفض القارون النصيحة، ويرفض أن تنسب ثروته لأى مصدر أو فعل أو نتيجة خارجة عن ذاته المتضخمة، فيرد باستعلاء: إن الفضل كله يعود إلى ذاته التى تملك العلم الذى ينبع منها وحدها لاحظ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. يؤدى الطغيان النابع من الاستغناء أيضًا إلى البغى، لذلك يقول كتاب الله: ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [القصص: ٧٦]، والبغى لغة هو الخروج عن حد العدل إلى الظلم، وعن حد الإصلاح إلى الفساد، لقوله تعالى:

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الشورى: ٢٧]، لقد كان قارون من بنى إسرائيل ولم يكن مصريًا، ولم يمنعه طغيانه من ظلم أهله وقومه.

كذلك فإن الثروة الهائلة والمال الوفير لا يمنع القارون من الظلم، ومن الاستيلاء على أموال الآخرين بالغصب والغش والتدليس، ومن منع الآخرين من حقوقهم فى المنافسة الشريفة، بل يدفع القارون أيضًا إلى البخل وإلى الشراء بالبخس من الأسعار، وشراء الذمم للحصول على المكاسب غير المبررة، والتهرب من الاستحقاقات من مثل الواجبات الضريبية، ضنا بماله على تنمية مجتمعه، ورد بعض ما عليه لقومه، إلى أن تقع الواقعة حيث لا ينفعه عندها ماله ولا نفوذه ولا سلطانه. يتحدث القرآن عن الاستغناء الذى من هذا النوع بقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ٥ - ١١]. انظر هنا للتقابل: أعطى تقابل بخل، واتقى تقابل استغنى، صدق تقابل كذب، كذلك فالاستغناء قرين للبخل وقرين للتكذيب بالدين، ويناقض العطاء والتقوى والتصديق بالدين. وإن كان الاستغناء فى الآيات السابقة وضع فى الجهة المضادة للتقوى، وإذا علمنا أن التقوى تعني أن يضع الإنسان ما يقيه بينه وبين غضب الله، أى أن التقوى تعنى خشية الله والخوف منه، يصبح الاستغناء مرادفًا لعدم الخوف أو الخشية من الله العلى الكبير، فما هو المنتظر ممن لا يخاف الله؟

يقول د. «محمد شحرور»(*)، أما قارون فجاء من فعل (قرن)، وهو أصل يدل على جمع، فالقرآن سمى «قرآنا»، لأنه قرن بين معلومات «اللوح المحفوظ» «والإمام المبين». وعرّف الله قارون:

(١) **بفحش الغنى فى قوله:** ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦].

(*) فى كتابه: «الدولة والمجتمع»، صـ ٢٤٦.

(٢) أن قارون ليس له وطن أو قومية: لا ولاء للقارون إلا ولاؤه لثروته: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [القصص: ٧٦].

فقارون من قوم موسى، لكن الله صنفه مع فرعون وهامان فى قوله: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

(٣) أخبرنا الله - سبحانه -، بأن هؤلاء الثلاثة (قارون، وفرعون، وهامان) أعوان، التى جاءت منها «عوان» أى لهم سوابق ولهم لواحق (لا تخلو منهم مرحلة زمنية فى حياة البشر)، وذلك فى قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

(٤) قارون فرعون الآن تمثله الشركات الاحتكارية الكبرى التى ليس لها وطن (متعددة الجنسيات)، وتملك الكنوز. (انتهى).

لزيادة الإيضاح أضيف إلى ما سبق (أى الشركات الاحتكارية) فئة من أصحاب الثروة من أبناء الوطن التى تعقد قرانًا على السلطة السياسية والدينية، لتتوحش وتعمل ضد مصالح قومها.

لقد قلت: إنها فئة من أصحاب الثروة دون تعميم، ولذلك فأنا أقول مع د. شحرور، إن ذلك لا يعنى أبدًا الرأسمالية الوطنية، أو الغنى المشروع، فقارون لقب لنوع خاص من الغنى، هو الغنى الاحتكارى الكبير (تذكر الذى عدل القوانين لكى يحتكر منتج حيوى فى مصر)، وليس الغنى بشكل عام، لأن الغنى النسبى، والفقر النسبى من ظواهر جدل المجتمعات الإنسانية، أو قل: هو من سنن وقوانين المجتمعات الإنسانية فى الأرض.

لقد أطلق القرآن على بقية الناس مصطلحًا هو «المستضعفون فى الأرض»، لكنه بين القدرة الهائلة لهؤلاء المستضعفين حين يريدون، وأوضح بجلاء قدرتهم على مواجهة الطواغيت الثلاثة (فرعون، وهامان، وقارون)، حين قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦]. أرأيت كيف فعلت جموع ميدان التحرير بهؤلاء الطواغيت؟ إن جموع ميدان التحرير هم المؤمنون

حقًّا، وهم بما صنعوا وجاهدوا وصبروا وقاموا، أصبحوا وكأنهم يد الله التى مدت وكان ما نجم عن ذلك: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فالشكر والثناء للمستضعفين فى الأرض، والحمد والمنة لرب السماوات والأرض، ولا خسران إلا للظالمين.

* * *

خاتمة

لا يسعنا فى النهاية إلا أن نقول: إن الاستبداد ليس إلا عدوانًا.. عدوانًا صارخًا.. عدوانًا وحشيًّا على:

- الله، بمزاحمته جَلَّ وَعَلَا فى ربوبيته.
- الله، بمزاحمته جَلَّ وَعَلَا فى ألوهيته.
- كتب الله المنزلة بالتحريف، وتغيير الكلم من بعد مواضعه، وتعطيل آياته، ونسبة آيات إلى كتابه مع عدم ظهورها فيه بزعمهم.
- عدوانًا على المقدس بإخضاعه للزمان والمكان، وعدوانًا على المقدس مرة أخرى بزج ناتج مجهودات الإنسان داخل حظيرة القدسية.
- عدوانًا على الإنسانية بالهبوط بالإنسان إلى مرحلة البشرية بعد أن غادرها بتلقيه وحى الله.
- عدوانًا على الإنسانية مرة أخرى بالحجر على العقل الإنسانى وتعطيله والوقوف به عند مرحلة زمنية اختاروها وزينوها وسحروا أعين الناس واسترهبوها، ليتوقف العقل عندها.
- عدوانًا على البدائل التى هيأها رب العالمين لعباده، بإلغائها بل و إن شئت قل حرقها، فلا يبقى من سبيل أمام الناس إلا سبيلهم وما اختاروه بزعمهم.

والله لا يحب المعتدين

نشأت جعفر
مصر الجديدة
١٤٣٥هـ - أغسطس ٢٠١٤م

ملحق: الأسماء الحسنى الصحيحة

الرحمن	الرحيم	الملك	القدوس	السلام	المؤمن	المهيمن
العزيز	الجبار	المتكبر	الخالق	البارئ	المصور	الأول
الآخر	الظاهر	الباطن	السميع	البصير	المولى	النصير
العفو	القدير	اللطيف	الخبير	الوتر	الجميل	الحيي
الستير	الكبير	المتعال	الواحد	القهار	الحق	المبين
القوي	المتين	الحي	القيوم	العلي	العظيم	الشكور
الحليم	الواسع	العليم	التواب	الحكيم	الغني	الكريم
الأحد	الصمد	القريب	المجيب	الغفور	الودود	الولي
الحميد	الحفيظ	المجيد	الفتاح	الشهيد	المقدم	المؤخر
المليك	المقتدر	المسعر	القابض	الباسط	الرازق	القاهر
الديان	الشاكر	المنان	القادر	الخلاق	المالك	الرزاق
الوكيل	الرقيب	المحسن	الحسيب	الشافي	الرفيق	المعطي
المقيت	السيد	الطيب	الحكم	الأكرم	البر	الغفار
الرءوف	الوهاب	الجواد	السبوح	الوارث	الرب	الأعلى

الله

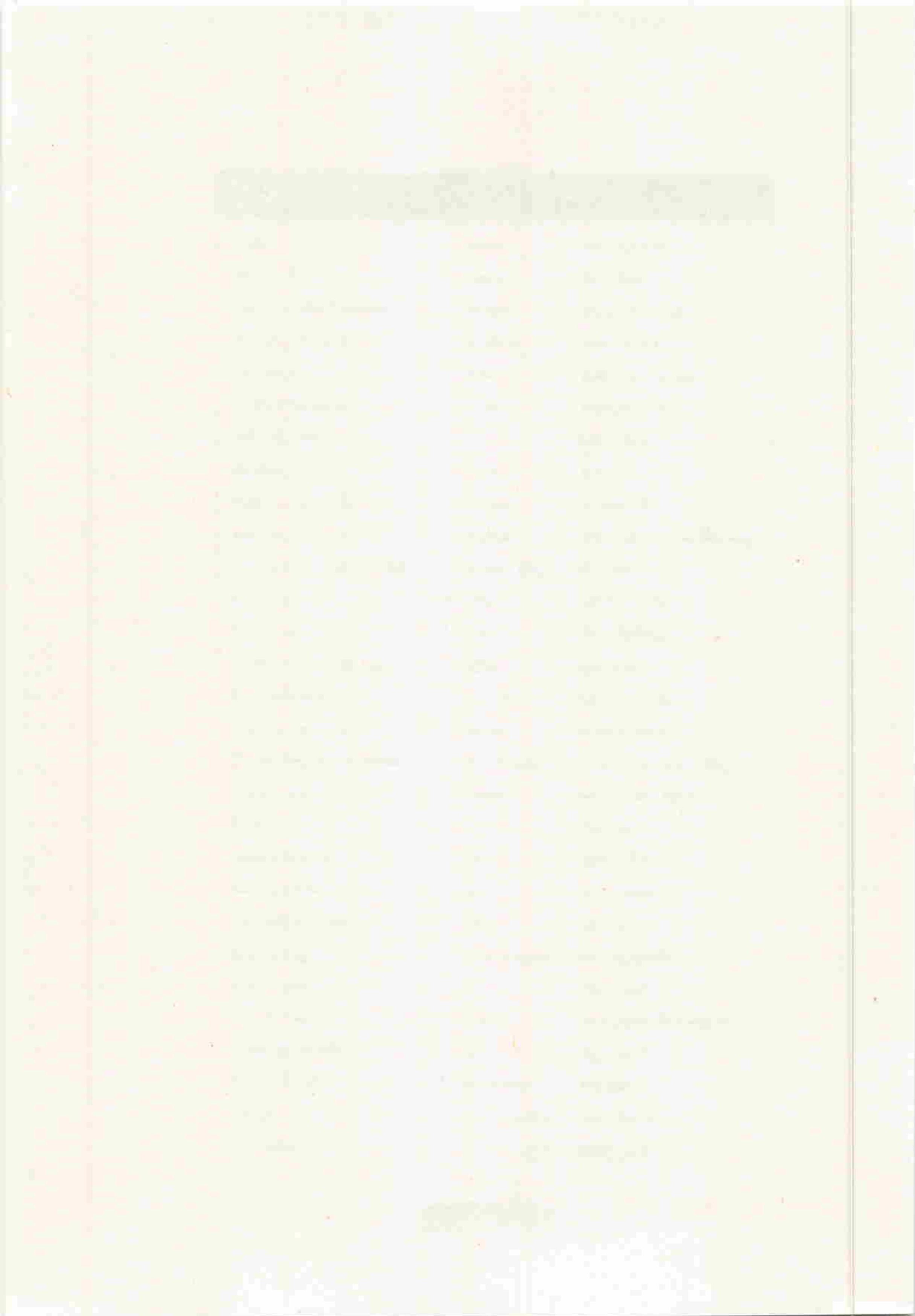
صدر عن الدار

تخاريف خريف	شعر	مؤمن المحمدي
كل ما صنع الحداد	شعر	محمود خيرالله
قطة وقديسة وجنية	شعر	عبد الرحيم يوسف
حدثتنا ميرا	رواية	لميس فارس المرزوقي
إف/هم	رواية	كمامي
زعماء وعشاق	مقالات	سيد عبد القادر
يا قليل الأدب	نصوص	ميشيل نبيل
المدينة الملعونة	رواية	سعيد البادي
حوار الطظ	وثيقة	سعيد شعيب
المثقفون وكرة القدم	مقالات	أشرف عبد الشافي
الآخر في الشعر العربي	نقد	د. أيمن بكر
تفسر أعضاءها للوقت	شعر	وليد علاء الدين
يوميات من القرن الأفريقي	رحلات	علي العمودي
آلة الزمن	كوميكس	خالد الجابري
القطط أيضا ترسم الصور	قصص	أحمد شوقي علي
الشياطين لا تأتي عصرا	قصص	أشرف عبد الكريم
المهارات الأساسية للكتابة العربية	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
مرة ١ مسلم و ١ مسيحي	مقالات ساخرة	محب سمير
أرقام سرية	شعر	ميسرة صلاح الدين
تدريس أدب الأطفال	تعليم	د. محمد سعيد حسب النبي
التربية العملية الميدانية	تعليم	د. محمد محمود موسى د. محمد سعيد حسب النبي
فتوات وأفندية	مقالات	د. ياسر ثابت
كائنات الورق	قصص	مالك عبيد
الطريق إلى قصر العروبة	سياسة	محمد علي خير
الضريح	رواية	كرم صابر
موسم الفراشات الحزين	رواية	اسامة حبشي
رائحة فرنسية	رواية	أسامة عبيد
مع ملائكة مكة	رحلات	سعيد البادي



شوق	رواية	خليل أبوشادي
حبَّـات التــوت	قصص	عادل العجيمي
إغراء السلطة المطلقة	سياسة	بسمة عبد العزيز
همسات لها أجنحة	نصوص	سلطان الحجار
نهار خارجي	قصص	محمد عبد الرحمن
قراصنة المتوسط	تاريخ	مجموعة باحثين
ملك على الذكرى	شعر	أحمد كامل
المتهم	رواية	كرم صابر
مقدمات الثورة المصرية	سياسة	د. أيمن بكر
دماء على طريق الحرية	سياسة	حنان بدوي - حنان السمني
السلفيون ايضا يدخلون النار!	سياسي ديني	وليد طوغان
فراشة الميدان	رواية	سلطان الحجار
25 حكاية	قصص	عمرو القاضي
مريم العذراء والانتفاض	رواية	كرم صابر
في انتظار وطن	سياسة	محمد علي خير
لأننا على قيد الحياة	قصص	ميشلين حبيب
الأصول السياسية للتنمية	اقتصادسياسي	د.عمرو اسماعيل عادلي
كازينو بيض النعام	قصص	محسن راشد أبوبكر
الحية	رواية	ياسر سليم
ناشطة سياسية	رواية	سلطان الحجار
هذه الزُرقة البراقة	رواية	شتفان مولدُرفر
سيرة ذاتية لرئيس!	رواية	كرم صابر
أشياء تختفي	قصص مترجمة	جيني إيربينبيك
جومابل زهدي	قصص	ايهاب بدوي
حرية الإرادة	فلسفة	دسيدريوس إيراسموس
رحلات ابن البيطار	رواية	علي بريشة
فردوس الزهراء	رواية مصورة	أمير وخليل
محمول	قصص مترجمة	إنجو شولتسه
قرع الطبول ليلا	مسرحية مترجمة	برتولد بريخت







يحاول هذا الكتاب أن يلقي الضوء على الموقف المعارض الذى يقفه كتاب الله من ثالوث الاستبداد (السياسي والديني والمالي)؛ ويقوم هذا الإيضاح تأسيسا على قصة موسى وهارون عليهما السلام اللذان شكلا رأس الحربة ضد هذا الثالوث ممثلاً فى:

1.فرعون بوصفه رأساً للاستبداد السياسي.

2.هامان بوصفه رأساً للاستبداد الديني.

5.قارون بوصفه رأساً للاستبداد المالي.

كما يوضح الكتاب من خلال الفصول المختلفة بعض السمات النفسية (العلو والتكبر والقسوة والسيطرة) والتكتيكات الاستبدادية التى وردت فى القصص القرآني والتى تجد صداها عند المقارنة بعصر مبارك، وبما يفعله رجال الدين إلى يومنا هذا، وعلى سبيل المثال:

1.يقدم كتاب الله البديل على الدوام حتى فى المعتقد ذاته: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [2:256]، لكن الاستبداد يعمل على إلغاء البديل، بل يخلق بديلاً كريهاً: " أنا أو الفوضى"، " أنا أو الفتنة الطائفية "، "نحن أو الكفر والمروق من الدين "، ....

2.يعمل المستبد على الدوام على محاولة إبطاء حركة الزمن، أو حتى إيقافه، ويخفي ذلك تحت دعاوى مختلفة:

1.الاستبداد السياسي يسمي الركود والتخلف بمسمى الاستقرار.

2.الاستبداد الديني يتحدث عن قرون مفضلة ويخلق عقدة دونية حتى يتوقف إعمال العقل والاكتفاء بفكر من سبق، حيث لهم الأفضلية.

3.الاستبداد المالي يجعل هروب الاستثمارات هو الرد الوحيد على كل من يحاول أن يحمّله بعض الواجبات تجاه أهله.

هذا بعض ما أردت إيضاحه بهذا العمل وأسأل الله التوفيق.

نشأت جعفر

المؤلف:

نشأت جعفر مهندس، خريج جامعة القاهرة عام 1968، تفرغ للكتابة بداية من عام 1996، نشر العديد من المقالات في الفكر الإسلامي، وله عدة كتب منشورة من بينها "الحرية في الإسلام (الضرورة المحظورة)" 2002، "العمل في الإسلام (الضرورة المهدرة)" 2003، وله ترجمات عديدة من بينها: "كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيفانجيلية"، و"الدين و السياسة في الولايات المتحدة" بالاشتراك مع آخرين.

Cover Design by: Mohamed Sayed

